الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

Medicine and medical services in the Levant in the seventh century AH

伊斯兰历七世纪/公元十三世纪黎凡特的医学和医疗服务

د/ براك عبيد المطيري

المحاضر بقسم الدراسات الاجتماعية – كلية التربية الأساسية بالهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.

دولة الكويت

الأستاذ المساعد بالجامعة العربية المفتوحة بالكويت (سابقاً)

Barrak al Motairy, Ph.D., College of Basic Education, Public Authority

for Applied Education and Training, Kuwait.

barrak60@gmail.com

تاريخ تسلُّم البحث : ٢٠٢٤/٧/٣١

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٤/٨/١٣

الملخص:

تتحدث هذه الدراسة عن ((الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري)) وهي فترة يلاحظ فيها تقدم الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام، مثل توفر البيمارستانات (المستشفيات) وتوفر التعليم الطبي على نطاق واسع، وكانت الدراسة الطبية في هذه الفترة تنقسم إلى دراسة نظرية ودراسة عملية، كما تعددت المؤسسات التعليمية التي يدرس فيها الطلاب علوم الطب من مجالس علمية ومدارس طبية وبيمارستانات ومساجد، وكانت التخصصات الطبية المشهورة في هذه الفترة تخصص الطب العام وطب العيون (الكحالة) والطب الجراحي. وقد كان الأطباء يعملون في مجالات متعددة منهم من يعمل في الإشراف الطبي، ومنهم من يعمل لعلاج المرضى في البيمارستانات والقلاع، ومنهم من يعمل طبيباً

مرافقاً للملوك الأيوبيين، وكانت تصرف لهم مكافآت ورواتب مقابل عملهم في البيمارستانات أو العمل مع الملوك. وقد وجد في بلاد الشام في هذه الفترة أمراض متعددة عانى منها كثير من الناس منها أمراض باطنية، ومنها أمراض تصيب العيون. وقد تميزت هذه الفترة بوجود البيمارستانات التي تقدم العلاج الشافي للمرضى في معظم المدن الشامية، مثل مدينة دمشق وحلب وحماة وعكا والرقة والقدس، وقد كان أشهرها وأكبرها البيمارستان النوري بدمشق الذي تميز بتعدد خدماته الطبية وتقدمها. ثم أخيراً ذكرت ترجمة لأشهر أطباء الشام في القرن السابع الهجري والدور الذي قاموا به سواء في التعليم الطبي أو علاج الأمراض.

الكلمات المفتاحية: بلاد الشام، الطب، القرن السابع الهجري

Summary:

This research talks about medicine and the medical services in Levant in the 7th Hijri century – an era in which we can notice that medicine and medical services are advanced in Levant, add there were a lot of Bimarestanat "hospitals" and the medical education was available on a large scale. Medical studies in that era were divided into two types theoretical and practical. Moreover, the educational establishments in which students studied medical sciences varied, such as scientific symposiums, medical schools, Bimarestanat and mosques. The most famous scientific specializations in that era where general medicine, ophthalmology "AL Kahala", and surgical medicine. Doctors used to work in different fields. Some of them worked in medical supervision, others worked in treating the patients in Bimarestanat and castles, and others work as a doctor accompanying the Ayyoubian kings, and they got good prizes and salaries for their work in Bimarestanat or with the kings.

In this era in Levant, there were a lot of common diseases which a lot of people suffered the from like diseases and the diseases which affected eyes. This error witnessed the spread of Bimarestanat which offered good treatment for the patients in most of Levant cities, like Damascus, Aleppo, Hama, Akko, Raqqa, and Jerusalem. The biggest center was Elnoori

Bimarestan in Damascus which was distinguished with its diverse and advanced medical services. Then, at the end I mentioned a biography of the most famous doctors in Levant in the 7th hijri century, and their role which they did both in medical education and in treating diseases.

Keywords: The Levant, Medicine, 7th century AH.

المقدمة:

يعتبر الطب من العلوم المهمة عند المسلمين، وذلك لدوره في حفظ حياة الإنسان، من علاج للأمراض والتخفيف من معاناة المرضى. وقد تميزت بلاد الشام في القرن السابع الهجري بتقدم الخدمات الطبية، وذلك لتوفر البيمارستانات (المستشفيات)، وانتشار التعليم الطبي بعقد المجالس العلمية أو التدريس في البيمارستانات أو المدارس الطبية، وهذا ما أدى إلى وفرة في أعداد الأطباء وتوفر العلاج للمرضى.

وقد حاولنا في هذا البحث رصد هذه الظاهرة الحضارية، بجمع مادتها العلمية من المصادر الأصلية وتحليلها وتصنيفها، لكي تتضح الصورة عن تقدم الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام في هذا القرن.

هذا وقد قسمنا هذه الدراسة إلى خمسة مباحث، فيما يلي بيانها:

المبحث الأول: تحدثنا فيه عن التعليم الطبي والتخصصات الطبية في بلاد الشام.

والمبحث الثاني: تحدثنا فيه عن مجالات عمل الأطباء وأجورهم.

أما المبحث الثالث: فقد خصصناه للأمراض الشائعة في هذه الفترة وعلاجها،

ثم المبحث الرابع: وتحدثنا فيه عن بيمارستانات (مستشفيات) بلاد الشام ودورها في هذا القرن، أما المبحث الخامس: فقد ذكرنا فيه أشهر أطباء الشام في هذا القرن وجهودهم في علاج الأمراض والتخفيف من معاناة المرضى. هذا وقد اطلعنا على بعض الدراسات السابقة التي لها علاقة بموضوع الطب في بلاد الشام.*

أولاً: التعليم الطبي والتخصصات الطبية في بلاد الشام:

تميزت بلاد الشام في القرن السابع الهجري بجودة الخدمات الطبية وتطورها، وكان ذلك بسبب وفرة عدد الأطباء الذين يعالجون المرضى في البيمارستانات[١] (المستشفيات) الموجودة في معظم المدن الشامية، وقد ساعد على ذلك توفر التعليم الطبي الجيد وتعدد المؤسسات التعليمية.

هذا وسوف نذكر فيما يلي المعلومات المتوفرة عن التعليم الطبي في بلاد الشام في القرن السابع الهجري.

١– التعليم الطبي:

لابد لطالب الطب المبتدئ في بلاد الشام أن يكون قد أنهى الدراسة الأولية للطلاب في الكتّاب من تعلم اللغة العربية والحساب وحفظ بعض سور من القرآن الكريم، ثم يبدأ بعد ذلك بالدراسة الطبية النظرية على يد عدد من مشايخ الأطباء المشهورين (أصيبعة، ١٩٩٨م، ص٦٨٧).

وتنقسم الدراسة الطبية في بلاد الشام إلى القسمين التاليين:

الدراسة النظرية: ويتلقاها الطالب على يد مشايخ الأطباء بقراءة ودراسة الكتب الطبية المعروفة، والدراسة العملية: والتي تكون عادةً بالتدريب على أعمال الطب مع كبار الأطباء في البيمارستانات، ويمكن توضيح ذلك بالتالي:

أ– الدراسة النظرية:

كان طالب الطب المبتدئ يبدأ الدراسة النظرية بقراءة الكتب الطبية الأولية المشهورة التي يدرسها كل طالب طب على يد مشايخ الأطباء مثل كتب جالينوس ومسائل حنين[٢] وغيرها حتى يفهمها جيداً، ثم يبدأ بدراسة الكتب الطبية الموسوعية مثل كتاب (الحاوي في التداوي) للرازي وكتاب (القانون في الطب) لابن سينا وغيرها من كتب الطب المعتبرة (أصيبعة، ١٩٩٨م، ص٦٣٣،678، ٦٨٢، ٧١٨).

يذكر الطبيب أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) معلومات مهمة عن الدراسة النظرية، فيذكر لنا أنه كان يدرس الطب في دمشق على يد أستاذه الشيخ الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م)[٣] في منزل الشيخ وأنه كان يدرس معه عدد كبير من الطلاب وكانوا يدخلون على الشيخ مهذب الدين مجموعات قوم بعد قوم، وأن الشيخ مهذب الدين كان يقرأ كل

منهم درسه ويشرحه له شرحاً وافياً، وأنه قد بدأ الدراسة مع الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بقراءة كتب جالينوس الطبية، وأن الشيخ مهذب الدين كان خبيراً ومتمكناً في معرفة الكتب الطبية التي تقرأ عليه في منزله (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١)، وأنه كان لا يقرأ أحد من الطلاب إلا ويكون بيد هذا الطالب نسخة من ذلك الكتاب، فكان الشيخ يشرح للطالب ويوضح له كل غامض من الدرس. ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضا أن للشيخ مهذب الدين خزانة كتب كبيرة في منزله، فيها أمهات الكتب الطبية التي يحتاجها لتدريس الطلاب، وكذلك كتب الأعشاب والأدوية والنبات وكتب معاجم اللغة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٣)، وهذا ما يساعد الشيخ مهذب الدين في تدريسه لطلابه.

وقد كان بعض الطلاب متميزاً عن غيره في دراسته للطب من حيث سرعة استيعابه وحفظه للكتب الطبية واستغلال كل وقته في التزود من العلم ومطالعة الكتب، ويصف لنا ابن أبي أصيبعة هذا الأمر فيقول عن أحد الطلاب: ((قرأ صناعة الطب... وأتقنها في أسرع الأوقات ... ووجدت له في أوقات اشتغاله من الاجتهاد ما ليس لغيره من المشتغلين ... وكان لا يخلي وقتاً من التزيد في العلم والعناية في المطالعة والفهم، وحفظ كثيراً من الكتب الطبية...)) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢).

وكان بعض الطلاب يكون من أسرة طبية، فيبدأ دراسته النظرية على يد والده أولاً، ثم ينتقل بعد ذلك للدراسة على يد غيره من مشايخ الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٧).

ب- الدراسة العملية:

عندما يُنهي طالب الطب في بلاد الشام دراسته النظرية، والتي تكون عادةً على يد عدد من مشايخ الأطباء المشهورين، فإنه يبدأ التدريب العملي للطب على يد كبار الأطباء العاملين في البيمارستان النوري بدمشق، يلازمهم ويحضر معهم كل يوم للمرور على المرضى المقيمين في البيمارستان فيشاهد طرق فحص المرضى ويتعرف على الأمراض وأعراضها والوصفات العلاجية التي يصفها الأطباء لكل مريض.

يذكر لنا ابن أبي أصيبعة والذي كان من الأطباء المشهورين في هذا القرن، أنه قد تدرب على أعمال الطب في البيمارستان النوري[٤] بدمشق، وكان ذلك على يد أستاذه الطبيب الشهير مهذب الدين عبد

الرحيم الدخوار فيقول عنه: ((لازمته أيضاً وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب ...)) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢).

كما تدرب أيضاً على يد الطبيب عمران بن صدقة (ت٦٣٧ هـ/١٢٣٩م) الذي كان يعمل مع الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم في هذا الوقت في البيمارستان النوري فيقول: أنه قد تضاعفت الفائدة التي حصلت عليها من ملازمتي لهذين الطبيبين، وذلك لما كان يجري بينهم من كلام في الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفاه للمرضى من العلاج (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢)[٥].

كما يتدرب الطبيب المبتدئ أيضاً في قسم الاستقبال الذي يكون في مدخل البيمارستان النوري، حيث يأتي المرضى إلى طبيب يكون جالس عند مدخل البيمارستان فيتم فحصهم ومعرفة شكواهم، وإذا كانت حالتهم لا تستدعي دخول البيمارستان يكتب لهم الطبيب أوراق فيها وصفات علاجية يأخذون بها الأدوية من خزانة الأدوية في البيمارستان النوري ثم يعودون إلى منازلهم (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢، ٦٨٣).

وإذا ما أتم طالب الطب الدراسة النظرية والتدريب العملي واستوعب ذلك كاملاً، فإنه يصبح طبيبًا معالجًا يسمح له بعلاج المرضى، ويكون ذلك بتزكية وإجازة من الأساتذة الأطباء الذين درس وتدرب على أيديهم. هذا وفي الغالب يكون طالب الطب قد أنهى الدراسة النظرية والتدريب العملي وهو دون الخامسة والعشرين من العمر (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٨).

٢- المؤسسات التعليمية:

تعددت مؤسسات التعليم الطبي في بلاد الشام في القرن السابع الهجري ما بين المجالس العلمية[٦] والمدارس وكذلك البيمارستانات والمساجد.

أ- المجالس العلمية:

كان كثير من أطباء الشام المشهورين في هذا القرن يعقدون المجالس العلمية لتدريس الطلاب صناعة الطب، وذلك رغبةً منهم في نشر هذا العلم بين الدارسين لأهمية صناعة الطب في حياة الإنسان ودورها

في تخفيف الألم ومعالجة الأمراض. وقد كانت المجالس العلمية في هذه الفترة منتشرة ومتعددة، ويمكن أن نذكر أشهر الأطباء الذين كانوا يعقدون هذه المجالس العلمية. مثال ذلك مجلس الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة (ت٦١٦هـ/١٢١٩م)[٧] الذي كان يعقده في دمشق ويدرس فيه صناعة الطب وكان يتوافد عليه كثير من طلاب الطب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٩١). وكذلك مجلس الطبيب شمس الدين مُحَمَّد بن عبدان اللبود (ت٦٢١ هـ/١٢٢٤م)[٨] الذي ظل يدّرس الطب في دمشق منذ سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وحتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٤). أيضاً كان للطبيب الشهير والعالم الكبير مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (ت٦٢٨ هـ/١٢٣١م) مجلس لتدريس الطب لتلاميذه وكان يعقده في منزله في دمشق – وهو ما سبق ذكره – وقد ابتدأ التدريس للطلاب منذ سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، فاجتمع عليه خلق كثير من الطلاب والدارسين يقرأون عليه لسعة علمه، واستمر كذلك حتى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م حيث توقف عن التدريس والتطبيب لسفره خارج دمشق، وعندما عاد سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م أخذ يدرس الطلاب لكنه كان قد تعرض إلى مرض أدى إلى ثقل في لسانه فأصبح لا يسترسل في الكلام، فكان يكتب لتلاميذه في لوح ما يريد قوله لهم، واستمر كذلك حتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١، ٦٨٣).

كذلك كان للطبيب الشيخ رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م) مجلس لتدريس الطب، وهو من أكبر الأطباء سناً في هذا الوقت وعاش عمراً طويلاً حتى إن معظم أطباء الشام في القرن السابع الهجري قد درسوا على يديه أو على يد أحد تلاميذه[٩].

وكان يقول: إن جميع من قرأ علي ولازمني قد سعدوا وانتفع الناس بهم (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٤، ٦٢٥).

ويذكر ابن أبي أصيبعة أنه هو نفسه قد درس وقرأ على الطبيب رضى الدين الرحبي بدمشق في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م كتاباً للطبيب الرازي وانتفع به (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٥).

كذلك كان هناك مجلس علم للتدريس للطبيب رشيد الدين بن أبي الفضل الصوري (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥١، ٦٥٢)[١٠]. وأيضاً مجلس علم لتدريس الطب

للطبيب سعد الدين إبراهيم بن عبد العزيز السلمي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م) الذي كان يدرس الطب في دمشق منذ سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وحتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٣)[١١].

ب- المدارس:

لقد تطور التعليم الطبي في بلاد الشام في القرن السابع الهجري حتى أنه أصبح هناك مدارس تخصصت في تدريس الطب في البلاد، يتعلم الطلاب فيها مهنة الطب على يد أشهر وأمهر الأطباء في ذلك العصر، ومثال ذلك المدرسة (الدخوارية) التي أسسها العالم والطبيب الشهير مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار – السابق ذكره – عندما أوقف داره بدمشق في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م لتكون مدرسة للطب بعد وفاته، وأوقف عليها كثير من المصالح والضياع التي تُصرف إيراداتها على هذه المدرسة والعاملين فيها وذلك لضمان استمرارها، وأوصى أيضاً بأن يكون أول معلم للطب فيها هو الطبيب شرف الدين على بن يوسف الرحبي (ت٦٦٧هـ/١٢٦٩م) لثقته بعلمه وصلاحه[١٢].

وقد تم تنفيذ هذه الوصية، بعد وفاته في سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م، حيث بدأ التدريس بها فعلياً في ١٢ ربيع الأخر سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م على يد الطبيب شرف الدين على بن يوسف الرحبي، الذي ظل مدرساً بها حتى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٤)، ثم تولى التدريس بها من بعده في هذا العام الطبيب بدر الدين المظفر بن مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم ابن القاضي (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م)[١٣].

هذا وحسب معلوماتنا فإن المدرسة الدخوارية كانت أول مدرسة تأسست لتعليم الطب في دمشق، وهذا يؤكد لنا التطور الكبير الذي طرأ على التعليم الطبي والخدمات الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري.

جـ- البيمارستانات (المستشفيات):

يعتبر البيمارستان النوري بدمشق من المؤسسات التعليمية في بلاد الشام في هذا القرن وذلك لأن الأطباء الجدد عندما ينتهون من دراستهم النظرية على يد مشايخ الأطباء فإنهم يقومون بالدراسة العملية للطب في البيمارستان النوري مع كبار الأطباء يلازمونهم، يتعلمون منهم ويتدربون على أيديهم حتى الانتهاء من فترة الدراسة العملية، كذلك كان يوجد في البيمارستان النوري قاعة للتدريس والمحاضرات النظرية تستقبل

الطلاب والدارسين لسماع درس علمي أو محاضرة في الطب على يد أحد كبار الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٨١، ٦٨٢)[١٤].

د- المساجد:

لم يكن تدريس الطب في المساجد شائعاً كثيراً في بلاد الشام في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد ذكرت لنا المصادر أن بعض مشايخ العلماء كانوا يعقدون الحلقات التعليمية لعلوم مختلفة في المساجد والتي منها الطب، ومثال ذلك العالم والطبيب موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م) وهو عالم مشهور جاء من العراق إلى بلاد الشام وكان يعقد حلقاته التدريسية في جامع دمشق، ثم بعد ذلك في الجامع الأقصى بالقدس وأن الناس كانوا يشتغلون عليه بكثير من العلوم والتي منها الطب[١٥].

٣- التخصصات الطبية:

سوف نذكر فيما يلي التخصصات الطبية التي كانت موجودة في بلاد الشام والتي توفرت معلوماتها من المصادر، وهي تخصص الطب العام وتخصص طب العيون (الكحالة) وتخصص الطب الجراحي.

أ- الطب العام:

وهو التخصص الأعم حيث إن الطبيب يدرس الأمراض التي تصيب الإنسان عامة سواء كانت أمراض باطنية أو جلدية أو غيرها، وبذلك هو يعالج كل ما يشتكي منه المريض في جسده، والأطباء العامون يترددون كل يوم على البيمارستان لعلاج المرضى سواء من يأتي للعلاج اليومي أو المرضى المقيمون فيه (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٠٨، ٦٤٩، ٦٥٠).

ب- طب العيون (الكحالين):

وجد في بلاد الشام في هذا القرن الكثير من الأطباء الذين تخصصوا في أمراض العيون، ويعرفون بالكحالين وكانوا يعالجون أمراض العيون التي كان يعاني منها كثير من الناس في ذلك الوقت، يصفون لهم الأدوية والعلاجات المناسبة التي توضع في العين وتشفي أمراضهم أو تخفف من آلامهم، وكان البعض

منهم يعالج مرضى العيون في البيمارستان النوري بدمشق، والبعض يستقبل المرضى من منزله (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٥-٦٥٧، ٦٨٩، ٦٩٠).

جـ- طب الجراحة:

طب الجراحة من التخصصات المهمة التي يحتاجها المرضى سواء من تعرض لمرض يتطلب تدخلًا جراحيًا مثل الأورام والخراجات، أو من تعرض لإصابات وجروح في الحروب أو الحوادث تتطلب ترميمها وخياطتها، وكان الجراحون يتواجدون في البيمارستان النوري للقيام بمهامهم إذا طلب منهم ذلك، ويكون عملهم مع الأطباء العامين (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٠٨، ٧٠٢)، وكان الطب الجراحي متقدماً في بلاد الشام في هذا الوقت حتى إن بعض الأطباء الجراحين قد صنفوا الكتب في علم الجراحة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٥، ٦٨٧، ٧١٧، ٧١٨).

ثانياً: مجالات عمل الأطباء وأجورهم:

كان أطباء الشام في القرن السابع الهجري يعملون في مجالات طبية متعددة منهم من يعمل في الإشراف الطبي وهو رئاسة الأطباء، ومنهم من يعمل في علاج المرضى في البيمارستانات والقلاع، وخاصة البيمارستان النوري بدمشق وقلعة دمشق، ومنهم من يعمل كطبيب خاص مرافق مع الملوك الأيوبيين، ومنهم من يستدعى لمهمات طبية خارج دمشق.

وقد كان عملهم هذا بأجر وراتب تصرفه لهم السلطة الحاكمة. هذا وسوف نوضح ذلك فيما يلي:

١- العمل في الإشراف الطبي:

من ملامح تطور الخدمات الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري أن الملوك الأيوبيين كانوا يعينون طبيباً يشرف على عمل الأطباء في البيمارستانات، ويصدرون له منشوراً رسمياً بتعيينه رئيساً للأطباء في دمشق، ويسند هذا المنصب عادةً إلى كبار الأطباء من أهل العلم والخبرة، فيكون عمله الإشراف على أعمال الأطباء في كافة تخصصاتهم ومدى قيامهم بواجباتهم الطبية على أكمل وجه.

وممن تولى رئاسة الأطباء في هذه الفترة الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م)[١٦] حيث ولاه الملك العادل رئاسة الأطباء في مصر والشام في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، ثم ولاه الملك الأشرف موسى بن العادل أبو بكر بن أيوب[١٧] رئاسة الأطباء في دمشق وذلك في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وذلك لخبرته ومهارته الطبية (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١، ٦٨٣).

وعندما توفى الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م، ولى الملك الأشرف رئاسة الطب بدمشق للطبيب سعد الدين إبراهيم بن عبد العزيز السلمي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م)[١٨].

وكان السلمي طبيباً ماهراً ذا خبرة وكفاءة، استمر في عمله حتى وفاة الملك الأشرف بدمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٣).

وفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م تولى رئاسة الأطباء بدمشق الطبيب بدر الدين المظفر بن القاضي (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م)[١٩] بأمر من الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود[٢٠]، حيث أصدر له منشوراً بأن يكون رئيساً على جميع الأطباء والكحالين والجراحين، وكان الطبيب بدر الدين المظفر مقرباً من الملك الجواد ويعمل في خدمته، وقد قام الطبيب بدر الدين المظفر بمهامه خير قيام، حيث حسن الخدمات الطبية بدمشق، فقام بتجديد وتوسيع بناء البيمارستان النوري، وبذل في ذلك المال والجهد الكثير (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢، ٧٠٣). ولكفاءة الطبيب بدر الدين المظفر وحسن إدارته نجده يتم تعيينه للمرة الثانية رئيساً للأطباء بدمشق بأمر من الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل[٢١] وذلك في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م فاستمر في عمله رئيساً للأطباء يشرف على أعمالهم في البيمارستان النوري، وكذلك في قلعة دمشق وكان كثير التردد على البيمارستان النوري ويشارك بنفسه في فحص وعلاج المرضى (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٣).

٢- العمل في البيمارستان والقلاع:

كان أطباء الشام في القرن السابع الهجري يقدّمون الرعاية الطبية للمرضى في البيمارستانات في مدن الشام المشهورة، وكذلك للمرضى في القلاع، خاصة قلعة دمشق حيث كان يسكنها عادةً أسر ملوك

وسلاطين بني أيوب الذين يحكمون دمشق وحاشيتهم، فكان بعض الأطباء المكلفين بالعمل في البيمارستان النوري بدمشق مكلفين أيضا بعلاج مرضى قلعة دمشق، وبعد انتهاء الطبيب من عمله في البيمارستان فإنه يذهب لتفقد وعلاج مرضى القلعة.

ومن الأطباء الذي كانوا يعملون في البيمارستان النوري في هذه الفترة الطبيب كمال الدين المظفر بن علي القرشي الحمصي (ت٦١٢هـ/١٢١٥م)[٢٢]، الذي كان يتردد سنين إلى البيمارستان النوري بدمشق يعالج المرضى احتساباً بدون أجرة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٤)، ومن الأطباء أيضاً الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) الذي باشر العمل في البيمارستان النوري بدمشق في المحرم من سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م بأمر من الملك العادل أبو بكر بن أيوب[٢٣]، فكان يعالج المرضى في البيمارستان النوري وكذلك مرضى قلعة دمشق (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٨).

ومن الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري أيضاً الطبيب شمس الدين مُحَمَّد بن عبدان اللبودي (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م) طبيب ماهر ذو همة عالية وذكاء، ظل يعمل معالجاً لمرضى البيمارستان النوري حتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٤)[٢٤].

ومن أشهر الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري في هذه الفترة أيضاً الطبيب الماهر ورئيس الأطباء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) أستاذ أطباء دمشق في عصره، وقد التحق بالعمل كطبيب معالج للمرضى في البيمارستان النوري ومرضى قلعة دمشق منذ سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وكان ذلك بأمر من الملك المعظم[٢٥] الذي منحه راتبًا شهريًا مقابل معالجة مرضى البيمارستان واستمر في العمل بالبيمارستان حتى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١-٦٨٣).

ومن الأطباء العاملين في البيمارستان النوري في هذه الفترة أيضاً الطبيب رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) وهو من أطباء الشام المشهورين في هذا القرن تميز بعلمه وجودة علاجاته، وكان طبيبا في البيمارستان النوري بدمشق في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م زمن الملك المعظم، وكان يجلس على دكه – كرسي مستطيل – في مدخل البيمارستان يستقبل المرضى القادمين للبيمارستان يستمع لشكواهم

المرضية، ثم يكتب لهم العلاج المناسب في أوراق يأخذون بها العلاج من خزانة الأدوية في البيمارستان، ثم يعودون إلى منازلهم إذا كانت حالتهم لا تستدعي دخول البيمارستان (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٤، ٦٨٢)[٢٦]. وفي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م تم تعيين الطبيب سديد الدين محمود بن عمر بن رفيقة (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م)[٢٧] ليكون طبيباً يعالج المرضى في البيمارستان النوري، وكذلك مرضى الدور السلطانية في قلعة دمشق، وذلك بأمر من الملك الأشرف موسى[٢٨] الذي صرف له أجرًا وراتبًا شهريًا مقابل عمله (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٧)، ومن الأطباء أيضاً الذين عملوا في البيمارستان النوري الطبيب عمران بن صدقة الإسرائيلي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) وهو من أطباء أهل الذمة المشهورين وكان يتردد أيضاً لعلاج مرضى الدور السلطانية في قلعة دمشق (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٨).

ومن الأطباء الذين عملوا أيضاً في البيمارستان النوري، الطبيب ورئيس الأطباء سعد الدين إبراهيم بن عبد العزيز السلمي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وكان أوحد زمانه في صناعة الطب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٣).

ومن الكحالين (أطباء العيون) الذين عملوا في البيمارستان النوري طبيب العيون، والكحال سديد الدين القاسم بن خليفة الخزرجي (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م) الذي يعتبر أشهر وأمهر أطباء العيون في بلاد الشام في عصره (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٧، ٦٨٨)، كان متمكناً من طب العيون، وكان يعالج أمراض العيون في البيمارستان النوري، وأيضاً مرضى العيون في قلعة دمشق وذلك منذ سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، وقد تميز سديد الدين بأنه قد نجح في علاج أمراض العيون الشديدة التي عجز الأطباء الآخرون عن علاجها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩)[٢٩].

ومن الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري بدمشق أيضاً الطبيب جمال الدين عثمان بن يوسف الرحبي (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) الذي تميز بحسن معالجاته، وظل يعالج المرضى في البيمارستان النوري سنين عديدة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٣)[٣٠].

وممن عمل في البيمارستان النوري وقلعة دمشق أيضاً الطبيب ورئيس الأطباء بدر الدين المظفر ابن مجد الدين عبد الرحمن المعروف بابن القاضي (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٥٦/٧)، الذي بدأ عمله طبيباً في بيمارستان مدينة الرقة ببلاد الشام ثم تم تعيينه رئيساً على

الأطباء في البيمارستان النوري بدمشق سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وهو ما سبق ذكره (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢، ٧٠٣).

ومن الأطباء الذين كانوا يعملون في البيمارستان النوري في هذه الفترة أيضاً الطبيب شرف الدين علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٦٧هـ/١٢٦٩م) طبيب مشهور ومتمكن من صناعة الطب ومن أسرة طبية، عُرف عنه نزاهة النفس وحب العمل، وأنه لا يرغب بالعمل مع الملوك، وإنما ظل يعالج المرضى في البيمارستان النوري بدمشق ويدّرس الطب في المدرسة الدخوارية السابق ذكرها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٧).

ومن أشهر الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري بدمشق أيضاً الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٧٠م)[٣١]، الذي يقول عن نفسه: كان لي في ذلك الوقت (ويقصد قبل سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) مرتب وأجر مقابل معالجتي المرضى في البيمارستان النوري، ثم انتقلت إلى صرخد[٣٢] لخدمة أميرها وذلك سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٧).

ومن أطباء الشام المعروفين أيضاً في هذا القرن الطبيب أبو الفرج بن الشيخ موفق الدين إسحاق بن القف (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) طبيب نصراني من الكرك[٣٣]، عمل طبيباً في قلعة عجلون[٣٤] سنين عديدة، ثم انتقل إلى دمشق وأصبح طبيباً يعالج مرضى قلعة دمشق (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٨١)[٣٥]. ومن أطباء الشام في هذه الفترة أيضاً الطبيب رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) وكان في مدينة القدس بفلسطين في سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) وما قبلها يعالج المرضى في بيمارستان القدس وكان ماهراً في الطب وفي معرفة الأدوية المفردة أسمائها وأنواعها وتأثيراتها وظل يعالج الناس في بيمارستان القدس عدّة سنين (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥١، ٦٥٢)[٣٦].

٣- العمل مع الملوك:

كان بعض أطباء الشام في هذا القرن يعملون أطباء خاصين ومرافقين للملوك الأيوبيين، وكان الملوك في هذه الفترة يحرصون على اختيار أفضل الأطباء للعمل معهم ومرافقتهم في الحضر والسفر، وذلك لتقديم الخدمات الطبية لهم ولحاشيتهم، وكذلك لعساكرهم وجنودهم، وذلك مقابل أجور ومكافئات مجزية تدفع

لهم. وكان للطبيب الحرية في قبول العمل معهم أو الاعتذار عن ذلك. هذا وسوف نذكر فيما يلي أشهر الأطباء الذين عملوا في هذا المجال:

من أشهر أطباء الشام الذين عملوا مع الملوك الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة (ت٦١٦هـ/١٢١٩م)[٣٧] الذي عمل طبيباً مع الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه[٣٨] صاحب بعلبك وذلك قبل سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م مقابل راتب وأجرة، وكان يعتمد عليه طبيبًا خاصًّا له ملازمًا له في معظم أوقاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٨). ثم عمل الطبيب رشيد الدين بعد ذلك مع الملك المعظم الذي أعجب به وبمهارته الطبية، فطلبه للعمل معه وذلك منذ سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وأطلق له المعظم راتبًا شهريًّا مجزيًا، فكان طبيبه الخاص ومرافقه حتى إنه رافق المعظم في رحلته للحج في سنة ٦١١هـ/١٢١٤م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٩٠، ٦٩١).

وممن عمل طبيباً مرافقاً للملوك أيضاً الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب (ت٦٢٥هـ/١٢٢٨م) طبيب نصراني من أهل القدس (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩)[٣٩]، دخل في خدمة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر ،وكان يعتمد عليه كثيراً في الخدمات الطبية، فكان طبيباً له وأيضاً طبيباً لعسكره وجنوده، وكان مرافقاً له في إقامته وسفره، وكان الطبيب يعقوب بن سقلاب ماهراً متمكناً من الصناعة الطبية وخاصة الطب اليوناني ويجيد اللغة الرومية، وكان المعظم يشكر له مهارته في علاج الأمراض، واستمر مع المعظم فترة طويلة، وعندما أصيب هذا الطبيب بمرض (النقرس) وأصبح لا يستطيع المشي، كان يتنقل مع المعظم محمولاً على محفة (كرسي محمول)، وكان المعظم يكرمه غاية الإكرام، واستمر يعمل معه حتى وفاة الملك المعظم سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ثم طلب ابن سقلاب إعفاءه من الخدمة فأمر الملك الناصر داوود ابن المعظم[٤٠] أن يُعفى من العمل ولا يُكلف بخدمة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩-٦٥١).

وممن عمل مع الملوك أيضاً الطبيب المشهور مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) الذي عمل طبيباً للملك العادل أبو بكر بن أيوب منذ سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م وكان ذلك مقابل أجرة وراتب شهري كبير، وكان قبل ذلك يعمل طبيباً في البيمارستان النوري بأجرة قليلة، فلما علم الملك العادل بمهارته الطبية في علاج الأمراض، طلبه ليكون معه ولم تزل منزلته ترقى عند الملك العادل حتى صار جليسه وصاحب مشورته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٩).

وقد أعجب الملك العادل بالطبيب مهذب الدين عبد الرحيم عندما نجح في معرفة شكوى جارية في بيت السلطان، ولم يعرف ذلك غيره من أطباء القصر حينما شاهدوا قارورة[٤١] الجارية وكان لونها داكن مما يوحي بالمرض ووصفوا لها العلاج، لكن الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم قال إن الألم الذي تشكو منه هذه الجارية لا يوجب هذا الصبغ الذي في القارورة وإن هذا اللون ربما يكون من حناء اختضبت به، وقد ثبتت صحة كلامه وتفسيره للون الداكن للقارورة، وهذا ما جعل الملك العادل يثق بعمله ومهارته الطبية ويقدمه على سائر الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٩).

وكان للطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الفضل في علاج الملك العادل من مرض شديد ألم به في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م فعالجه حتى تم شفاؤه واستعاد الملك عافيته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١).

وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م كان الطبيب مهذب الدين مرافقاً للملك العادل في زيارته إلى ابنه الكامل[٤٢] في مصر والذي قد تعرض إلى مرض شديد كاد يقضي عليه، فقام الطبيب مهذب الدين برعايته والإشراف على علاجه بأفضل الأدوية حتى تم شفاؤه تماماً من هذا المرض الشديد (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١).

وفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م طلبه الملك الأشرف ليعمل معه طبيبًا مرافقًا، فوافق على ذلك مهذب الدين عبد الرحيم وعمل معه في خدمته حتى عودة الأشرف إلى دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٣). وقد كان الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم مقرباً من الملوك الأيوبيين لثقتهم به وبمهارته الطبية وجودة علاجاته، وهذا ما جعلهم يمنحونه الكثير من الهبات المالية.

ومن الأطباء الذين عملوا مع الملوك الأيوبيين الطبيب سعد الدين إبراهيم بن عبد العزيز السلمي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وكان يعمل مع الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، وله منه الإحسان الكثير والراتب الوافر، واستمر معه حتى عاد معه إلى دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وزادت ثقة الملك الأشرف بالطبيب سعد الدين إبراهيم، فولاه رئاسة الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٢، ٦٢٣) بدمشق وهو ما سبق ذكره.

ومن الكحالين (أطباء العيون) الذين عملوا مع الملوك الطبيب ،هو الكحال المشهور سديد الدين القاسم بن خليفة الخزرجي (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م) الذي كان من أمهر الكحالين في دمشق في ذلك الوقت طلبه الملك العادل ليكون مرافقاً له بعد أن نجح في علاج عيني خادم للعادل كاد أن يصاب بالعمى لشدة المرض (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩) وبدأ العمل مع الملك العادل منذ سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وأجرى له العادل راتبًا كل شهر وكان سديد الدين مقرباً من الملك العادل ومن جميع الملوك من بعده، حيث عمل مع الملك المعظم منذ سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ثم عمل مع الملك الناصر داود ابن المعظم والذي كلفه بالتردد إلى الدور السلطانية بقلعة دمشق لعلاج المرضى (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩).

ومن أطباء الشام الذين خدموا مع الملوك أيضاً الطبيب نجم الدين يحيى بن شمس الدين مُحَمَّد بن عبدان[٤٣] (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٥-٦٢٠)، (كان حياً سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، وكان أوحد زمانه في الصناعة الطبية، عمل مع الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين صاحب حمص[٤٤] وزادت ثقته به حتى جعله وزيراً له لا يفارقه واستمر معه حتى وفاة المنصور سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٥).

مما سبق نعرف أن بعض أطباء الشام في هذا القرن قد قبلوا العمل مرافقين وأطباء خاصين للملوك الأيوبيين، وذلك في فترات معينة من حياتهم، كما أنهم عملوا أيضاً أطباء معالجين للمرضى في البيمارستانات في أوقات أخرى. ولكن الذي يجب أن يذكر هنا هو أن بعض أطباء الشام في هذا القرن قد رفضوا العمل مع الملوك رغم ما عرض عليهم من مكافئات مالية مجزية من قبل هؤلاء الملوك، وفضلوا العمل في علاج المرضى ورعايتهم في البيمارستانات، وأنهم كانوا يكرهون التكسب بصناعة الطب ويفضلون خدمة وعلاج المرضى من عامة الناس، ومن هؤلاء الأطباء الطبيب كمال الدين المظفر بن علي الحمصي (ت٦١٢هـ/١٢١٥م) وكان طبيباً فاضلاً رفض العمل مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب وغيره من الملوك، وظل سنين يعمل في البيمارستان النوري بدمشق احتساباً (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٣، ٦٣٤) وهو ما سبق ذكره.

ومن هؤلاء الأطباء أيضاً الطبيب رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) وهو من أكابر أطباء الشام في هذا الوقت، شديد الاجتهاد في علاج المرضى، رفض العمل مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب حينما عرض عليه ذلك، وفضل العمل في البيمارستان النوري الكبير بدمشق بأجر متواضع

واستمر على ذلك حتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٤). وكذلك الطبيب شرف الدين علي بن يوسف بن حيدرة – ابن الطبيب السابق– (ت٦٦٧هـ/١٢٦٩م) الذي كان نفس أبيه لا يرغب بالعمل مع الملوك، وظل يخدم في البيمارستان النوري الكبير بدمشق حتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٧).

٤– القيام بمهام علاجية خارج دمشق:

كان بعض أطباء الشام المشهورين في هذا القرن يتم استدعاؤهم من قبل بعض الملوك والأمراء في المدن الشامية البعيدة خارج دمشق، وذلك في مهام علاجية ثم يعودون إلى دمشق بعد انتهاء المهمة الطبية، ومن ذلك أنه في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م تم استدعاء الطبيب رشيد الدين على بن خليفة (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) من دمشق في مهمة علاجية إلى مدينة بصرى الشام[٤٥] بناءً على طلب الملك الصالح إسماعيل ابن العادل[٤٦]، صاحب بصرى الشام لعلاج والدته من مرض شديد ألم بها، وكذلك علاج مرضى آخرين لديه فقام الطبيب رشيد الدين بهذه المهمة خير قيام، حيث جاء إلى بصرى الشام وعالج أم الملك من المرض حتى شفيت تماماً، وكذلك قام بعلاج المرضى الآخرين، وهذا ما أسعد الملك الصالح فمنحه مكافئة مالية كبيرة على ذلك (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٩٢).

كذلك تم استدعاء الطبيب عمران بن صدقة الإسرائيلي[٤٧] (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) من قبل الملك الناصر داود بن المعظم صاحب الكرك[٤٨]، وذلك لمعالجته من عارض صحي أدى إلى توعك مزاج الملك الناصر، فجاء إليه الطبيب عمران بن صدقة وأقام عنده أيام يعالجه بالأدوية والأشربة المناسبة حتى تماثل للشفاء، فأغدق عليه الناصر الكثير من المال، وعاد الطبيب عمران إلى دمشق (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٨). ثم قام الطبيب عمران بن صدقة بمهمة أخرى إلى مدينة حمص حيث استدعاه صاحب حمص سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م لمعالجته من مرض أصابه، فجاء إليه من دمشق وعالجه حتى شفي[٤٩] (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩).

٥– أجور ومكافئات الأطباء:

كان أغلب أطباء الشام في هذا القرن يعيشون بمستوى معيشي متوسط، والبعض منهم كان بمستوى معيشي عالي، وذلك لما يحصلون عليه من أجور عالية ومكافئات مالية من السلطة الحاكمة مقابل عملهم في البيمارستانات والقلاع أو عملهم أطباء خاصين مرافقين للملوك.

هذا وسوف نوضح فيما يلي، رواتب ومكافئات بعض أطباء الشام في هذا القرن، وذلك حسب المعلومات المتوفرة.

كان الطبيب رشيد الدين على بن خليفة (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) يعمل مع الملك المعظم بدمشق منذ سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وكان له راتب وأجرة شهرية مجزية من الملك المعظم، غير الهبات والهدايا الأخرى التي يحصل عليها، وعندما جاء الملك الكامل من مصر إلى بلاد الشام لزيارة أخيه الملك المعظم، أعجب بالطبيب رشيد الدين علي بن خليفة فأعطاه خلعة كاملة وخمسمائة دينار. وعندما نجح الطبيب رشيد الدين في علاج أم الملك الصالح إسماعيل صاحب بصري الشام سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م أعطاه الملك الصالح الكثير من الذهب والخلع (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٨، ٦٩٠، ٦٩٢).

وكان الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) يعمل مع الملك العادل براتب (مئة دينار) تصرف له كل شهر وذلك منذ سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٩) وهو يعتبر راتبًا عاليًا مقارنة برواتب العاملين في البيمارستان النوري بدمشق.

وعندما تعرض الملك العادل للمرض الشديد في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م تولى علاجه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم حتى تم شفاؤه تماماً. واستعاد عافيته، فأعطاه العادل (سبعة ألاف دينار) مكافئة له على ذلك، وبعث إليه أبناء الملك العادل الكثير من الهدايا من الذهب والخلع والبغلات (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١). وعندما مرض الملك الكامل ابن العادل وهو بالديار المصرية في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وجاء إليه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم وأشرف على علاجه حتى شفى تماماً – وهو ما سبق ذكره –، أعطاه الملك الكامل مالاً كثيراً وهدايا بلغت (اثني عشر ألف دينار) وأربعة عشر بغلة والكثير من الخلع والثياب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١). وفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م كان الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم

يعمل طبيباً خاصاً ومرافقاً للملك الأشرف موسى، وقد أعجب به الملك الأشرف ومهارته الطبية، فوهبه إقطاعاً يغل له في كل عام (ألف وخمسمائة دينار) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٣).

كان هذا نموذج للأطباء الذين يحصلون على المكافئات المالية المرتفعة وهم الأطباء الذين عملوا مع الملوك الأيوبيين، أما الأطباء الذين رفضوا العمل مع الملوك وفضلوا العمل في البيمارستانات وخاصة البيمارستان النوري بدمشق فإن أجورهم ورواتبهم أقل بكثير مما يحصل عليه الطبيب المرافق للملوك. ومثال على ذلك الطبيب رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) من أشهر وأقدم أطباء دمشق، لكنه رفض العمل مع الملك العادل، وفضل العمل في البيمارستان النوري، فمنحه الملك العادل راتب (٣٠ دينار) كل شهر مقابل عمله في البيمارستان، وعندما توفى الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م تولى السلطة بدمشق من بعده ابنه الملك المعظم الذي أمر بأن يصرف للطبيب رضى الدين يوسف راتب (١٥ دينار) كل شهر (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٤) مقابل عمله في البيمارستان النوري بدمشق.

ويلاحظ هنا انخفاض راتب الطبيب رضي الدين الرحبي في زمن الملك المعظم إلى النصف تقريباً (من ٣٠ دينار زمن الملك العادل إلى ١٥ دينار زمن المعظم) ولا يعرف سبب هذا التخفيض، فقد يكون بسبب ظروف اقتصادية تمر بها الدولة زمن الملك المعظم، أو أن الأمر متروك لكل ملك هو من يقدر ويقرر ما يصرفه من رواتب، للأطباء العاملين في البيمارستان النوري.

ثالثاً: الأمراض الشائعة في بلاد الشام وعلاجها:

عرفت بلاد الشام في القرن السابع الهجري أنواعًا متعددة من الأمراض، منها أمراض عامة تصيب الجسد وأمراض تصيب العين، وكان أطباء الشام في هذا القرن يجتهدون في معالجة المرضى والتخفيف من معاناتهم وآلامهم وذلك بالأدوية والأشربة المعروفة في ذلك الوقت بعد أن يتم فحص المريض ومعرفة شكواه ومرضه حتى يتم علاجه.

١- فحص المريض:

حرص الأطباء في بلاد الشام في هذا القرن على فحص المريض والتحقق من نوع المرض، وذلك بسؤال المريض عن شكواه، وملاحظة الأعراض التي تظهر عليه حتى يتسنى للطبيب معرفة المرض ووصف العلاج المناسب.

يقول ابن أبي أصيبعة عن الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب:

((وكان بن سقلاب شديد البحث واستقراء الأعراض، حيث إنه إذا افتقد مريضاً لايزال يستقصى منه عرضاً عرضاً... لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره فكانت معالجاته لا مزيد عليها في الجودة.)) (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٠).

وكان الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) يتفقد المريض ويدقق في فحصه لمعرفة مرضه قبل الشروع في العلاج (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢).

ومن طرق فحص المريض في ذلك الوقت، جس نبض القلب للمريض والتأكد من قوة النبض أو ضعفه، وكذلك ملاحظة نظرة عيني المريض، وكذلك لون (بوله) في القارورة ومن هذه الفحوصات والأعراض التي تظهر على المريض يتمكن الطبيب من معرفة المرض، ومن ثم صرف العلاج المناسب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٩، ٦٨١، ٦٨٢).

٢- الأمراض العامة:

عرفت بلاد الشام في هذا القرن عددًا من الأمراض التي كانت شائعة بين الناس، وقد اجتهد أطباء الشام في علاج هذه الأمراض والتخفيف من معاناة المرضى. ومن الأمراض التي كانت شائعة في هذه الفترة مرض (الجذام)[٥٠] وهو مرض شديد يشوه الأعضاء، وكان يصاب به بعض الناس، وتذكر لنا المصادر أن أحد أطباء الشام قد رأى مريضاً مصاباً بالجذام وقد شوه بعض أعضائه، فأمره بأن يأكل لحوم الأفاعي وسوف يشفى من المرض، وأن هذا المريض قد أكل لحوم الأفاعي وشفي فعلاً من المرض (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٠٨)، ومن الأمراض التي عرفت في هذا الوقت أيضاً مرض (الاستسقاء)[٥١]، وكان قد

أصيب به أحد المرضى وأدخل البيمارستان النوري بدمشق للعلاج، وكانت بطن المريض مليئة بالسوائل ومنتفخة، فأرادوا علاجه بالجراحة بأن شقوا فتحة في بطنه وأخرجوا منها سائل أصفر، ثم شدوا الموضع بالرباط، وكانت هذه هي الطريقة التي يعالج بها هذا المرض (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٠٨).

ومن الأمراض الشائعة أيضاً في هذه الفترة مرض (القولنج)[٥٢] وهو مرض يصيب الأمعاء الغليظة، ويشتد على المريض وقد توفي بسببه بعض المرضى في بلاد الشام في هذا القرن (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٣، ٦٧٩).

ومن الأمراض المعروفة أيضاً في ذلك الوقت مرض (الفالج)[٥٣] وقد عالج أطباء الشام رجلاً أصيب بالفالج وتم شفاؤه، فيذكر لنا ابن أبي أصيبعة: أنه عندما كان يتدرب مع الأطباء في البيمارستان النوري بدمشق جاء إلى البيمارستان رجل مفلوج، ولما رآه الطبيب عمران بن صدقة (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) أمر بفصده (إخراج الدم من العرق)، ووصف له العلاج المناسب، فلما فُصِد وأخذ العلاج تحسنت حالته وشفي (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩).

ومن الأمراض التي عرفت في هذه الفترة أيضاً مرض (توعك المزاج) ولعل المقصود بذلك هو مرض (الاكتئاب) وهو من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان. فيُذكر أن الملك الناصر داوود قد تعرض لتوعك في (مزاجه) وطلب الطبيب عمران بن صدقة ليعالجه، فجاء إليه الطبيب عمران وأعطاه العلاج المناسب لهذه الحالة (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٨) وهو ما سبق ذكره.

ويذكر ابن أبي أصيبعة مهارة الطبيب عمران بن صدقة وجودة معالجاته فيقول عنه: عالج أمراضاً كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة ويئس الأطباء من علاجهم، فتم شفائهم على يديه، بأدوية غريبة يصفها ومعالجات بديعة عرفها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩).

ومن الأمراض التي كانت معروفة في بلاد الشام في هذه الفترة أيضاً مرض (اليرقان) وهو مرض يؤدي إلى إصفرار عيون المريض (الخوارزمي، د.ت.، ص١٨٨)، وقد يكون شديداً ويؤدي إلى الوفاة، حيث أصيب به أحد الأشخاص في دمشق وأدى إلى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٤).

ومن الأمراض التي كانت معروفة أيضاً مرض (دوسنطاريا)[٥٤]. وهو مرض أصيبت به أخت الملك العادل أبي بكر بن أيوب (ت٦١٥هـ/١٢١٨) واسمها (ست الشام) وكان مرضاً شديداً جعلها تتقيأ الدم مع حرارة في الكبد، فاستدعوا لها الطبيب مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد[٥٥] (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م) والذي أمر بأن تسقى كافورًا مخلوطًا مع حليب بقلة (رجلة)، وشراب رمان، وصندل، فتقاصر عنها الدم وحرارة الكبد حتى شفيت تماماً (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٢).

ومن الأمراض التي عالجها أطباء الشام في هذه الفترة أيضاً مرض (الحمى) حيث جاء رجل إلى البيمارستان النوري بدمشق وهو يعاني من حُمّى شديدة، فلما رآه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) اعتبر قوته ثم أمر بأن يوضع له في قدح بذور من الكافور، وأن يشربه ولا يتناول شيئاً غيره، وفي اليوم التالي رآه الطبيب مهذب الدين ووجد أن الحمى قد زالت عنه (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢). ومن الأمراض المعروفة أيضاً مرض (مانيا)[٥٦] وهو الجنون واختلال العقل، وقد أصيب به رجل في دمشق، وأدخل البيمارستان النوري، وعندما رآه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم أمر بأن يسقى ماء شعير مضافًا إليه مقدار محدد من (الأفيون)، وبعد أن أخذ المريض هذا الدواء هدئ وسكن وتحسنت حالته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢).

ومن الأمراض المعروفة في بلاد الشام في هذا الوقت أيضاً مرض (حمى الدق)[٥٧] وهي حمى مستمرة تؤدي إلى ذبول في الجسم ثم الوفاة، وقد أصيب بها أحد قضاة دمشق في هذا القرن وأدت إلى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٩٨، ٥٩٩).

ومن الأمراض أيضاً مرض (النقرس)[٥٨] وهو تورم القدمين، ويؤدي إلى إعاقة المريض عن المشي، وقد أصيب به الطبيب موفق الدين بن سقلاب (ت٦٢٥هـ/١٢٢٨م) وأعاقه عن المشي، فكان يتنقل محمولاً – وهو ما سبق ذكره – وعندما سُئل لماذا لا تعالج نفسك من هذا المرض يا حكيم قال: الخشب إذا سوس لا يبقى في إصلاحه حيلة، ويقصد أن مرض النقرس ليس له علاج (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٠، ٦٥١).

ومن الأمراض أيضاً مرض (ذات الجنب) وهو وجع طاعن تحت الأضلاع مع سعال وحمى شديدة (الخوارزمي، د.ت.، ص١٨٧)، وهو مرض خطير، أصيب به رجل من أهل دمشق وأدى إلى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٧).

كذلك عالج أطباء الشام الأمراض الجلدية ووصفوا لها العلاج المناسب من الأطعمة والأدوية، فقد كان الوزير صفي الدين بن شكر في دمشق[٥٩] (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) وكان يعاني من شحوب في جلده ،كما أنه لم يستفد من الوصفات الطبية التي وصفها له الأطباء، فلما رآه الطبيب رضي الدين الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) وصف له العلاج المناسب وأمره بأن يترك أكل لحوم الدجاج، وأن يأكل لحم الضأن، ففعل ذلك، وزال عنه هذا الشحوب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٦).

٣- أمراض العيون:

تعرض سكان بلاد الشام في هذا القرن إلى أمراض العيون التي كانت متنوعة وشائعة، لذلك وُجِد في هذا الوقت أطباء تخصصوا في علاج أمراض العيون والذين عرفوا باسم الكحالين.

ومن هذه الأمراض التي ذكرتها المصادر مرض ضعف النظر بسبب الماء النازل في العيون، وقد عالج أطباء العيون بالشام هذا المرض بقدح العين[٦٠] التي نزل بها هذا الماء، ومن ثم يتحسن نظر المريض ويزول ما به وقد اشتهر بذلك الطبيب والكحال سديد الدين محمود بن رفيقة (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م) وكان ماهراً في هذا الأمر وكان يستخدم مقدحًا مجوفًا له عطفه (انثناء) ليتمكن في وقت القدح من امتصاص الماء النازل في العين، وكان المريض يبصر بعد هذا القدح، وقد كان يعالج مرضاه بدمشق في البيمارستان النوري وكذلك يتردد إلى قلعة دمشق لعلاج مرضى العيون في الدور السلطانية (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٥-٦٥٧).

ومن أطباء العيون المشهورين بدمشق في هذا الوقت أيضاً الكحال وطبيب العيون الماهر سديد الدين القاسم بن خليفة الخزرجي (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م)

وكان ماهراً جداً في طب العيون، نجح في سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م في علاج عيني أحد خدام الملك العادل أبي بكر بن أيوب بعد أن يئس من علاجه الكحالون بدمشق، وأجمعوا على أنه لا أمل في شفائه وأنه سوف يصاب بالعمى، فلما عرض على الطبيب سديد الدين القاسم بن خليفة وتأمل عينيه قال: أنا أداويه ويبصر إن شاء الله. وشرع في علاجه بأدوية لديه، وعيني المريض تتحسن كل يوم حتى شفي تماماً، وكان هذا الأمر يُعد نجاحاً باهرا للطبيب سديد الدين بن خليفة، كما أنه في هذا الوقت أيضاً قد نجح في علاج مرضى العيون في الدور السلطانية بقلعة دمشق، وهذا ما جعل الملك العادل يعجب به ويقربه منه، ويكرمه غاية الإكرام (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩)، لذلك تم تكليفه بعلاج مرضى العيون في البيمارستان النوري بدمشق مع صرف راتب مجزي له على عمله. وكان لشهرته ومهارته في علاج أمراض العيون، يأتي إليه الناس ويقصدونه من كل ناحية لما يجدون في مداواته من سرعة الشفاء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩).

وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م فوّض إليه الملك العادل أبو بكر النظر في أمر الكحالين في الشام ومصر، يختبرهم ومن يراه صالحاً لعلاج أمراض العيون يكتب له كتاباً بذلك (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١). وهذا يشير إلى اهتمام الملك العادل بتحسين الخدمات الطبية في عهده وحرصه على اختيار أكفاء أطباء العيون للسماح لهم بعلاج الناس، فيسمح لمن تثبت كفاءته ويمنع من لا يكون مؤهلاً لذلك. يقول ابن أبي أصيبعة عن مهارة والده سديد الدين بن خليفة في علاج مرضى العيون: وقد رأيت أبي قد عالج كثيراً من أمراض العيون التي قد يئس المرضى من شفائها، وأنها قد صلحت وشفيت بمداواته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٩٠).

رابعاً: بيمارستانات بلاد الشام في القرن السابع الهجري:

من مظاهر تقدم الخدمات الطبية في بلاد الشام في هذا القرن توفر البيمارستانات (المستشفيات) في أغلب المدن الشامية، مع اختلاف أحجامها ومستوياتها، وقد كان أكبرها في البناء هو البيمارستان النوري الكبير بدمشق (المنجد، ١٩٤٦، ص١٣)، أما غيره من البيمارستانات فقد كانت صغيرة المباني هذا وسوف نوضح ذلك فيما يلي:

١- بيمارستانات مدينة دمشق:

أ- البيمارستان النوري الكبير:

يعتبر البيمارستان النوري بدمشق أهم وأشهر بيمارستانات بلاد الشام على الإطلاق في هذا القرن، حيث لم يُبنَ قبله ولا بعده مثله، وذلك لكبر مساحته وتعدد قاعاته وسعة مبانيه وفخامتها، وكذلك لكثرة الأطباء العاملين فيه، وقد قام ببناء هذا البيمارستان السلطان نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م عندما أصبح سلطاناً على دمشق(٦١).

١) أقسام البيمارستان النوري:

كانت قاعات وغرف البيمارستان النوري بدمشق مقسمة حسب التخصص والحاجة، فهناك غرف مخصصة لعلاج الرجال، وغرف مخصصة لعلاج النساء، وهناك قاعات خاصة لمرضى (مانيا) الجنون، وقاعات خاصة للمرضى المحمومين (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢؛ عيسى، ٢٠١١، ص١٦)، وهناك خزانة للأدوية (صيدلية) يأخذ منها المرضى العلاجات التي يكتبها لهم الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٢)، وكذلك يوجد فيه خزانة للكتب وضع فيها أمهات الكتب والمراجع الطبية توجد في صدر إيوان البيمارستان، لكي يطلع عليها الأطباء وتكون مرجعًا لهم، وقد اشترى هذه الكتب وأوقفها على البيمارستان السلطان نور الدين محمود (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٨١؛ المنجد، ١٩٤٦، ص١٥)، كذلك كان في البيمارستان قاعة للتدريس والمحاضرات، تقع في الإيوان الكبير الذي كان مفروشاً ومعداً لاستقبال الدارسين من الطلاب والأطباء الذين يحضرون لسماع درس علمي أو محاضرة على يد كبير الأطباء (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٨١).

٢) عمل الأطباء في البيمارستان النوري:

كان الأطباء يأتون إلى البيمارستان النوري صباح كل يوم يتفقدون المرضى في قاعات البيمارستان، يمرون عليهم ويتابعون حالتهم المرضية، ويكتبون لهم الوصفات العلاجية من الأدوية والأطعمة التي يجب أن تعطى لهم حتى تتحسن حالتهم الصحية ويتعافوا من المرض، ثم يخرجون من البيمارستان إلى منازلهم (ابن جبير، ١٩٦٤، ص٢٥٥؛ أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٨١، ٦٤٩، ٦٨٢).

٣) معاونو ومساعدو الأطباء:

كان يعمل في البيمارستان النوري مشرفون وقوام (مشرفين وممرضين) يخدمون المرضى ويشرفون على متابعة حالتهم وإعطائهم الأدوية والأغذية التي يصفها لهم الأطباء، ويكون معهم (سجلات) فيها أسماء المرضى وما يكتبه الطبيب لكل مريض من أدوية وأغذية تعطى له ولا تؤخر عنه (ابن جبير، ١٩٦٤، ص٢٥٥؛ أصيبعة، ١٩٩٨، ص٥٨١).

٤) علاج المرضى:

كانت طريقة علاج المرضى في البيمارستان النوري على نوعين:

مرضى العلاج الخارجي: – وهو أن يأتي المريض إلى البيمارستان ويقابل الطبيب الجالس على دكة (مقعد مستطيل) في مدخل البيمارستان فيتم فحصه ومعرفة شكواه، ثم يصرف له الطبيب العلاج اللازم ،ويأخذه المريض من خزانة الأدوية (الصيدلية) في البيمارستان ثم يعود لمنزله.

مرضى العلاج الداخلي: – أي أن المريض يكون بحالة مرضية شديدة تستدعي دخوله وإقامته في البيمارستان لتلقي العلاج المناسب تحت الإشراف الطبي، حتى يشفى تماماً من المرض ويستعيد عافيته، فيخرج من البيمارستان إلى منزله (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٠٨، ٦٨٢؛ عيسى، ٢٠١١، ص٢٣).

لذلك يمكن القول إن البيمارستان النوري بدمشق قد أدى دوراً مهماً في مجال الخدمات الطبية لسكان بلاد الشام منذ إنشائه وخلال القرن السابع الهجري وما بعده من قرون[٦٢]، مما يجعلنا نقول بحق إنه يُعد مفخرة من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية.

ب– بيمارستان باب البريد:

كان يوجد في دمشق في هذه الفترة بيمارستان آخر يسمى بيمارستان باب البريد، وكان يقع غربي الجامع الأموي مقابل أحد أبواب الجامع المسمى بباب البريد، لذلك أطلق على البيمارستان اسم (بيمارستان باب البريد)، ولكنه أقل أهمية من البيمارستان النوري وذلك لأنه قديم البناء وصغير المساحة، وكان يتردد عليه طبيب لعلاج المرضى (ابن جبير، ١٩٦٤، ص٢٥٥؛ أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧١٠).

٢- بيمارستانات المدن الشامية الأخرى:

أ- بيمارستان حلب:

يوجد في مدينة حلب في هذا القرن بيمارستان يقع قرب سوق يسمى (سوق الهوى) وقام ببناء هذا البيمارستان السلطان نور الدين محمود أيضاً، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة، وهو بيمارستان مبارك (حسب وصف ابن جبير) يأتي إليه المرضى للعلاج (ابن جبير، ١٩٦٤، ص٢٢٨؛ عيسى، ٢٠١١، ص١٤٢،١٤٣).

ب- بيمارستان القدس:

تذكر المصادر أنه كان يوجد في هذه الفترة بيمارستان في مدينة القدس يعمل فيه أطباء لعلاج المرضى منهم الطبيب موفق الدين بن سقلاب (ت٦٢٥هـ/١٢٢٨م) والطبيب رشيد الدين الصوري (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) وغيرهم، وأن مؤسس هذا البيمارستان هو السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وذلك عندما استعاد بيت المقدس من الصليبين، وأنه أوقف عليه أوقافًا كثيرة لضمان استمراره في تقديم الخدمات الصحية للمرضى (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩-٦٥١؛ عيسى، ٢٠١١، ص١٤٦).

جـ- بيمارستان حماة وعكا:

يذكر لنا الرحالة ابن جبير أنه شاهد في حماة بيمارستان يقع على شط النهر (ابن جبير، ١٩٦٤، ص٢٣١).

وهذا يدل على أن الخدمات الطبية وعلاج المرضى كان متوفراً بهذه المدينة، أما مدينة عكا فيذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أوجد بها بيمارستان لعلاج المرضى، وأنه أوقف عليه أوقافًا كثيرة لضمان استمراره وجعل الإشراف عليه لقاضي عكا (ابن كثير، ٢٠٠٣، ٥٩٦/١٦؛ عيسى، ٢٠١١، ص١٤٧).

د- بيمارستان الرقة:

تذكر المصادر أنه يوجد في مدينة الرقة ببلاد الشام في هذه الفترة بيمارستان معروف يقدم الخدمات العلاجية للمرضى، ومن الأطباء الذين كانوا يعملون به الطبيب بدر الدين المظفر بن القاضي (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م) الذي عمل فيه سنوات طويلة ثم انتقل إلى دمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢).

هذا ما توفر لدينا من معلومات عن البيمارستانات التي كانت موجودة في بلاد الشام في هذا القرن.

خامساً: أشهر أطباء الشام في القرن السابع الهجري:

سوف نذكر فيما يلي أشهر أطباء بلاد الشام في القرن السابع الهجري الذين كان لهم دور مهم في التعليم الطبي وفي تقديم الخدمات الطبية والعلاجية للسكان في هذه الفترة، وهذا ما أدى إلى تخفيف معاناة المرض،ى وساهم في مكافحة الأمراض، وتحسين الصحة العامة للمجتمع الشامي في هذا القرن.

١– كمال الدين الحمصي:

هو الطبيب كمال الدين المظفر بن علي بن ناصر القرشي الحمصي (ت ٦١٢هـ/١٢١٥م) طبيب مشهور فاضل ذو علم وخبرة، ظل يعمل في البيمارستان النوري سنين دون أجر وإنما احتساباً، وكان يكره التكسب بصناعة الطب، لذلك رفض العمل مع الملوك، لكنه ألزم في آخر سنواته بأن صرف له أجر وراتب، وبقي يعمل في البيمارستان النوري حتى وفاته ، وله من المؤلفات كتاب (الرسالة الكاملة في الادوية المسهلة) ومقالة في الاستسقاء ، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٣،634؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٥٦/٧).

٢– رشيد الدين علي بن خليفة:

هو الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم الخزرجي (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) وهو (عم الطبيب ابن أبي أصيبعة) ولد في حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ثم انتقل مع والده إلى مصر وأقام بالقاهرة، حيث كان والده خليفة بن يونس يعمل في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي القاهرة درس رشيد الدين صناعة الطب على يد أشهر أطباء مصر في هذا الوقت، وكان ذلك بتشجيع من

والده، ثم مارس التدريب العملي في البيمارستان بمصر كما أنه درس أيضا طب العيون (الكحالة) والجراحة، فكان طبيباً عارفاً بهذه التخصصات. وفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م عاد رشيد الدين مع والده إلى دمشق وكان يبلغ من العمر عشرين عاماً، بعد أن تمكن من صناعة الطب وأجادها، فسمح له بعلاج المرضى في البيمارستان النوري بدمشق، كما أنه استمر في تحصيله العلمي على يد مشاهير أطباء الشام آنذاك، حتى أصبح ماهراً ومشهوراً وهو دون الخامسة والعشرين من العمر. وفي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م طلبه الملك المعظم بن العادل ليكون طبيبه ومرافقه فوافق على ذلك وعمل معه فترة من الزمن، وفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م عينه الملك العادل أبو بكر طبيباً في البيمارستان النوري بدمشق، وصرف له راتبًا شهريًّا على هذا العمل، ثم أنه قرر أن يدرّس الطب في دمشق فعقد له مجلساً عاماً للتدريس، فتوافد عليه كثير من الطلاب للدراسة. وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م استدعاه الملك الصالح إسماعيل بن العادل صاحب بصري الشام لعلاج والدته ومرضى آخرين عنده – وهو ما سبق ذكره –، فرحل إليه الطبيب رشيد الدين وبعد الانتهاء من علاج المرضى في بصري الشام، قرر رشيد الدين العودة إلى دمشق، وفي أثناء ذلك تعرض الطبيب رشيد الدين للمرض، وأصيب بحمى شديدة فعاد مسرعاً إلى دمشق والمرض يتزايد عليه، وقد حاول أطباء دمشق علاجه، ولكن دون فائدة، فتوفي في دمشق في شعبان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م وكان له من العمر ثمان وثلاثون عاماً ، وله من المؤلفات (كتاب في الطب) استقصى فيه الأمراض وأسبابها ومداواتها ، وكتاب (طب السوق) تحدث فيه عن الأمراض التي تحدث كثيرا ومداواتها. (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٦-٦٩٢؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٤/٢٨٥).

٣- شمس الدين اللبودي:

هو مُحَمَّد بن عبدان بن عبد الواحد اللبودي (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م) عمل في حلب طبيبًا للملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي[٦٣]، ثم انتقل إلى دمشق بعد سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وعمل طبيباً في البيمارستان النوري بدمشق يعالج المرضى، وكذلك أخذ يدرّس الطب للطلاب المشتغلين عليه – وهو ما سبق ذكره – واستمر على ذلك حتى وفاته في دمشق، وله كتاب (شرح كتاب المسائل لحنين بن إسحاق) ، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦١٤؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٦/١٨٣).

٤- موفق الدين يعقوب بن سقلاب:

هو موفق الدين يعقوب بن سقلاب (ت٦٢٥هـ/١٢٢٨م) طبيب نصراني من أهل الذمة ولد في القدس، ودرس بها الطب حتى أصبح طبيباً مشهوراً، ثم عمل سنين يعالج المرضى في بيمارستان القدس، تميز بمهارته بالطب اليوناني، وخاصة مؤلفات وأقوال جالينوس الطبية فكان يعرفها ويعمل بها، ومن أشهر تلاميذه الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة. يقول ابن أبي أصيبعة عن بن سقلاب: قرأت عليه في أول اشتغالي بالطب وكان حسن الشرح شديد الاستقصاء للمعاني بأحسن عبارة وأوجزها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩).

وعندما انتقل بن سقلاب إلى دمشق كان يباحث الأطباء في المسائل الطبية في مجلس خاص بالأطباء عند دار السلطان بدمشق. وقد اشتهر بن سقلاب بجودة معالجاته وشدة استقصائه لأعراض الأمراض، وأنه كان كثيراً ما يعالج بقوانين جالينوس الطبية التي كان معجباً بها، وأنه كان يجيد اللغة الرومية، ثم بعد ذلك عمل طبيباً مرافقاً للملك المعظم عيسى بن العادل وظل يعمل معه حتى وفاة المعظم – وهو ما سبق ذكره – وكان ابن سقلاب يعاني من مرض (النقرس) فدخل ابن سقلاب على ابن المعظم الملك الناصر داود وكان قد تولى بعد أبيه، وذكر له أنه يطلب الإعفاء من الخدمة لكبر سنه ومرضه.

وأنشده شعراً قال فيه:

أتيتكم وجلابيب الصبا قشب فكيف أرحل عنكم وهي أسمال

لي حرمة الضيف والجار القديم ومن أتاكم وكهول الحي أطفال

فأحسن إليه الملك الناصر كثيراً، وأطلق له مالاً وكسوة وأن يستمر ما كان مقرراً له من الملك المعظم ولا يكلف بخدمة، فبقي مقيماً في دمشق حتى وفاته في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩-٦٥١؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ١٩٨/٨).

٥- مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار:

هو الطبيب العالم ورئيس الأطباء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) أوحد عصره وعلّامة زمانه في الطب. قال عنه تلميذه ابن أبي أصيبعة: لم يكن في

اجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله، أتعب نفسه في الاشتغال وكدّ خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه في صناعة الطب (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٨).

ولد الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم في دمشق ونشأ بها لأسرة طبية، حيث كان والده كحالاً مشهوراً. تعلم مهذب الدين في بداية حياته طب الكحالة على يد والده، وظل يتزيد من العلم والدراسة الطبية على يد أشهر أطباء الشام في عصره، حتى أصبح طبيباً مشهوراً متمكناً من صناعة الطب، وعندما اشتهر بمهارته الطبية، طلبه الملك العادل أبو بكر بن أيوب للعمل معه طبيباً مرافقاً وذلك منذ سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م ومنحه راتبًا شهريًّا كبيرًا – وهو ما سبق ذكره –، وقد كانت علاجات الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم شافية ومتميزة، حيث نجح في علاج الملك العادل من مرض شديد ألم به، كما نجح في علاج ابنه الملك الكامل صاحب مصر، وهذا ما جعل الملك الكامل يختاره ليكون رئيساً على الأطباء في مصر والشام وهو ما سبق الإشارة إليه (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨١).

وفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م توفي الملك العادل، وتولى السلطة من بعده ابنه المعظم، فأمر الملك المعظم الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بأن يشرف على علاج المرضى في البيمارستان النوري بدمشق، وقد تميز الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بجودة علاجه للأمراض، ودقة تقصيه للأعراض المرضية، وحسن وصفاته الطبية التي تشفي سريعاً.

وبالإضافة إلى عمله في البيمارستان النوري فإنه عقد الجلسات التعليمية لطلاب الطب والدارسين في منزله، فكان يستقبل الطلاب مجموعات، ويدرّس ويشرح لكل مجموعة ما تحتاجه من دروس علمية (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٣) – وهو ما سبق ذكره – واستمر على ذلك حتى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م حينما طلبه الملك الأشرف موسى بن العادل للعمل معه، فوافق على ذلك وأصبح طبيبه المرافق له في الحضر والسفر واستمر يعمل معه حتى عاد مع الأشرف إلى دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، لكن قبل ذلك بوقت قليل تعرض الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم إلى مرض، أدى إلى ثقل في لسانه فأصبح لا يستطيع الاسترسال في الكلام، ثم تزايد عليه المرض حتى توفي بدمشق في صفر سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٣).

وكان الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم قد قرر في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أن يوقف داره في دمشق لتكون مدرسة للطب بعد وفاته، يدرس بها الطلاب علوم الطب وهو ما سبق ذكره وله من المؤلفات (مختصر لكتاب الحاوي للرازي) وكتاب (الجنينة في الطب) ومقالة في الاستفراغ ، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧٨-٦٨٤؛ الذهبي، ١٩٨٥، ٣١٦/٢٢؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٣٤٧/٣).

٦- رضي الدين الرحبي:

هو الطبيب العالم الشيخ رضي الدين يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) من أكابر الأطباء بدمشق، عمّر طويلاً حيث عاش ما يقرب من مئة سنة وهو بصحة جيدة، كان والده كحالاً معروفاً، أقام رضي الدين في الرحبة[٦٤] سنين ثم سافر إلى مصر لدراسة الطب على يد مشايخ الأطباء بها، ثم رجع إلى دمشق ودرس بها على يد مشايخ الأطباء، حتى أصبح طبيباً ماهراً يعالج المرضى، فأسند إليه علاج المرضى في البيمارستان النوري براتب شهري، وكان لا يرغب بالعمل مع الملوك، ويفضل العمل في البيمارستان النوري، وقد تدرب على يديه كثير من أطباء دمشق في تلك الفترة، ومن تلاميذه المشهورين الطبيب الشهير مهذب الدين عبدالرحيم، وكذلك الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، وغيرهم واستمر في عمله بالبيمارستان النوري بدمشق حتى وفاته بعد عمر طويل (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٤-٦٢٦؛ الذهبي، ١٩٨٥، ٣٧١/٢٢).

٧- سديد الدين بن رفيقة:

هو سديد الدين محمود بن عمر بن مُحَمَّد الشيباني الحانوي المعروف بابن رفيقة (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م) طبيب ماهر في الطب العام وكذلك في طب الكحالة والجراحة، وكان شاعراً يجيد الرجز وينظم الكتب الطبية رجزاً لتسهيل حفظها، وكان ماهراً في قدح العيون وإخراج الماء منها وهو ما سبق الإشارة إليه، بدأ العمل بطب الكحالة وهو دون العشرين من العمر، وكانت علاجاته ناجحة وشافية، عمل مع الملك الأشرف موسى بن العادل طبيبًا مرافقًا له وظل معه في مدينة ميا فارقين[٦٥] سنين عديدة، ثم جاء إلى دمشق سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م وأقام بها وكان الملك الأشرف موسى قد تملك دمشق في هذا الوقت، فأكرمه وأسند إليه العمل طبيباً لعلاج المرضى في البيمارستان النوري بدمشق، وكذلك يعالج مرضى الدور

السلطانية بقلعة دمشق، وكان يعمل معه في هذه الفترة في البيمارستان النوري الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة الذي قال عن الطبيب سديد الدين: عملنا سوياً في علاج المرضى في البيمارستان النوري فوجدت منه كمال المروءة وغزارة العلم وحسن معرفته بالأمراض وعلاجها ما يفوق الوصف (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٧). واستمر الطبيب سديد الدين في عمله حتى وفاته بدمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وله من المؤلفات كتاب (لطف السائل وتحف المسائل) نظم فيه مسائل حنين، وكتاب (كليات القانون) لابن سيناء نظمه رجزا، وكتاب(موضحة الاشباه في ادوية الباه) ومقالة في مسائل في الحميات وأجوبتها. (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٥-٦٥٧؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ١٧٨/٧).

٨- عمران بن صدقة:

هو عمران بن صدقة الإسرائيلي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) طبيب يهودي من أهل دمشق، من أسرة طبية، حيث كان والده طبيباً معروفاً، درس عمران الطب في دمشق على أشهر الأطباء، مثل الشيخ رضى الدين الرحبي وغيره من الأطباء حتى أجاد هذه الصناعة وتميز بها، وكان واسع الاطلاع والمعرفة مهتماً بجمع الكتب الطبية، رفض العمل مع الملوك وفضل العمل في دمشق يعالج المرضى في البيمارستان النوري ، وكذلك مرضى الدور السلطانية بقلعة دمشق، و يصرف له راتب شهري على هذا العمل، وكان يعمل معه في هذا الوقت في البيمارستان النوري الطبيب الشهير مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار وقد حقق اجتماعهم في البيمارستان نجاحاً كبيراً في علاج المرضى، وذلك لكفاءتهم وخبرتهم الطبية وكان الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة يتدرب معهم في البيمارستان النوري في هذا الوقت وهو ما سبق ذكره. تميز الطبيب عمران بن صدقة بجودة معالجاته وتحققه من المرض قبل العلاج، وأنه عالج الكثير من الحالات المرضية الصعبة التي يأس أصحابها من الشفاء. وفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ذهب عمران بن صدقة إلى مدينة حمص لعلاج أميرها ومات هناك (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٨-٦٤٩).

٩- رشيد الدين الصوري:

هو رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) ، طبيب مشهور من أهل بيت المقدس، درس الطب في القدس، ودرس الأدوية المفردة بأنواعها حتى أجاد ذلك وصنف كتاب (الأدوية

المفردة)، وأصبح طبيباً يعالج المرضى في بيمارستان القدس – وهو ما سبق ذكره – واستمر كذلك حتى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م عندما طلبه الملك العادل أبو بكر بن أيوب ليعمل معه فوافق على ذلك، واستمر بالعمل معه حتى وفاة العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، ثم عمل مع ابنه الملك المعظم عيسى ثم مع ابن المعظم الملك الناصر داود، الذي ولاه رئاسة الطب في دمشق، وفي دمشق، أخذ رشيد الدين الصوري يعقد المجالس العلمية لتدريس الطلاب صناعة الطب، وتوافد عليه الكثير من الدارسين واستمر كذلك حتى وفاته وله من الكتب كتاب (الأدوية المفردة) ، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥١-٦٥٤؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٣/٣).

١٠- سعد الدين بن عبد العزيز السلمي:

هو الحكيم سعد الدين إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الجبار السلمي (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م) طبيب ذو خلق ودين، عارف بالعلوم الطبية، وكذلك درس العلوم الشرعية، أحكم وأجاد صناعة الطب أصولها وجزئياتها، وكان يخدم في البيمارستان النوري بدمشق، ثم عمل مع الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، طبيباً مرافقاً، وله منه الإحسان الكثير والراتب الجزيل، وفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م جاء الملك الأشرف إلى دمشق وأصبح سلطاناً عليها، فولى الطبيب سعد الدين بن عبد العزيز رئاسة الطب في دمشق، فأصبح رئيسا للأطباء، وأيضا مدرسا للطب، حيث عقد مجلساً لتدريس الطب في دمشق وتوافد عليه كثير من الدارسين، وظل مقيماً بدمشق حتى وفاته (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٣؛ الصفدي، ٢٠٠٠، ٣٣/٦).

١١- سديد الدين القاسم بن خليفة:

هو سديد الدين القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م)، الكحال (طبيب عيون) أشهر أطباء العيون في بلاد الشام في عصره، وهو (والد الطبيب ابن أبي أصيبعة)، ولد سديد الدين في القاهرة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وكان والده خليفة بن يونس قد انتقل من الشام إلى مصر، حيث كان يعمل في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، لذلك درس سديد الدين الكحالة (طب العيون) في مصر على يد أشهر كحاليها، حتى أجاد هذه المهنة وتميز بها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٦)، ثم عاد إلى دمشق مع والده سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م وأخذ يعالج الناس بدمشق، وكذلك يعالج مرضى الدور السلطانية

في قلعة دمشق، حيث نجح في علاج جماعة كانت في أعينهم أمراض شديدة وتشافوا منها بأسرع وقت، ونجح سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م بعلاج أحد خدام الملك العادل أبو بكر بن أيوب من مرض شديد أصاب عينيه وعجز الأطباء عن علاجه وهو ما سبق ذكره.

وقد أعجب به الملك العادل إعجاباً شديداً وأكرمه غاية الإكرام وطلب أن يكون سديد الدين مرافقاً له في الحضر والسفر، فوافق على ذلك وبدأ العمل مع العادل منذ سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٩) وصرف له العادل راتبًا مجزيًا على عمله معه واستمر مرافقاً له حتى وفاة العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ثم عمل مع ابنه الملك المعظم عيسى حتى وفاة المعظم، ثم عمل مع ابن المعظم الملك الناصر داود وهو ما سبق الإشارة إليه، وكان حظياً عندهم جميعاً ويعتمدون عليه في العلاج، وله منهم الراتب والإحسان الكثير.

ولشهرة الطبيب سديد الدين وجودة علاجه للعيون، فإن الناس كانوا يأتون إليه من كل ناحية حيث كان يعالج أمراضاً كثيرة على أجود ما يمكن وخاصة المرضى الذين يأس الكحالون من علاجهم، وقد صلحت عيونهم وتم شفاؤها بمداواته، واستمر سديد الدين مقيماً بدمشق يعالج المرضى في البيمارستان النوري وفي قلعة دمشق حتى وفاته سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٨٦-٦٩٠؛ الصفدي، ٢٠٠٠، ٢٣٩/١٣).

١٢- جمال الدين الرحبي:

هو الطبيب جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ولد ونشأ في دمشق ودرس الطب أولاً على يد والده الطبيب المشهور رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبي – السابق ذكره – ثم درس على يد غيره من مشاهر أطباء دمشق حتى أجاد الصنعة وعرفها. تميز بحسن معالجته ومهارته الطبية، لذلك كلف بالعمل طبيباً في البيمارستان النوري بدمشق وظل فيه سنين عديدة، وكان أيضا يعمل بالتجارة بين مصر والشام وانتقل إلى مصر سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م وتوفي فيها (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٣).

١٣- شرف الدين علي الرحبي:

هو الطبيب العالم شرف الدين علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي (ت٦٦٧هـ/١٢٦٩م) ولد في دمشق سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وهو من أسرة طبية، والده الطبيب الشهير يوسف بن حيدرة الرحبي وأخوه الطبيب جمال الدين الرحبي السابق ذكرهم.

درس الطب على يد والده حتى تمكن ثم درس على مشاهير أطباء دمشق في عصره وكان شاعراً وأديباً، نزيه النفس لا يرغب بالتكسب في مهنة الطب لذلك رفض العمل مع الملوك، وإنما أحب العمل طبيبًا يعالج الناس في البيمارستان النوري بدمشق، وعندما بدأت الدراسة للطب في المدرسة الدخوارية في دمشق سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م كان هو أول مدرّس بها – وهو ما سبق ذكره – وذلك بناءً على وصية موقفها، الطبيب الشهير مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار، لما يعرفه مهذب الدين عن الطبيب شرف الدين من علم وصلاح وخبره. واستمر الطبيب شرف الدين مشتغلاً بالتدريس وعلاج المرضى بدمشق حتى وفاته، وله كتاب (خلق الإنسان وهيئته وأعضاؤه ومنافعها) لم يسبق إلى مثله، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٢٧-٦٣٣؛ ابن كثير، ٢٠٠٣، ١٧/٤٨٤؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٥/٣٤).

١٤- أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة:

هو موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) الطبيب والمؤرخ مؤلف كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) درس وتعلم الطب في دمشق، وهو من أسرة طبية مشهورة، فوالده الطبيب والكحال سديد الدين القاسم بن خليفة، وعمه الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة – سبق ذكرهم – تعلم الطب على يد مشاهير أطباء دمشق أمثال الطبيب موفق الدين بن سقلاب والطبيب مهذب الدين عبدالرحيم الدخوار، ويذكر أنه درس واستفاد كثيراً من الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم، كما أنه تدرب على يديه التدريب العملي لطالب الطب في البيمارستان النوري، حتى أصبح طبيباً معتمداً يعالج المرضى. (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٤٩،٦٨٢).

فعمل طبيبًا في البيمارستان النوري حتى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وكان يصرف له راتبًا مقابل عمله في البيمارستان، ثم انتقل إلى بلدة صرخد للعمل مع أميرها منذ سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م، وكان يتردد ما بين صرخد ودمشق حتى توفي في صرخد سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وألف أيضا كتاب (التجارب والفوائد) وكتاب

(حكايات الأطباء في علاجات الأدواء)، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٥٧؛ ابن كثير، ٢٠٠٠، ٤٨٨/١٧؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ١٩٧/١).

١٥- بدر الدين المظفر بن القاضي:

هو الطبيب بدر الدين المظفر ابن القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم (ت٦٧٥هـ/١٢٧٦م)، كان والده قاضياً لبعلبك - من مدن لبنان -، نشأ بدر الدين بدمشق، وبها درس علوم الطب على يد أشهر أطبائها، تميز بالعلم الغزير والذكاء الكثير، وسرعة الحفظ، تتلمذ على يد طبيب الشام الشهير مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار، ولازمه حتى تمكن من الطب علماً وعملاً، ثم انتقل للعمل في بيمارستان مدينة الرقة بالشام وظل به سنين طويلة، ثم عاد إلى دمشق. وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م تملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس، وكان بدر الدين مقرباً منه، ويعتمد الملك عليه في صناعة الطب ولثقته به وبعلمه ولاه الملك الجواد الرئاسة على جميع الأطباء والكحالين والجراحين في دمشق سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، وكتب له منشوراً بذلك، فقام بدر الدين بعمله خير قيام، وعمل على تحسين الخدمات الطبية بدمشق، فجدد مباني البيمارستان النوري وزاد في مساحته — وهو ما سبق ذكره-، وتحمل في ذلك الكثير من الجهد والمال.

وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب كلف بالعمل طبيباً في البيمارستان النوري، وكذلك علاج مرضى الدور السلطانية في قلعة دمشق، ثم أصدر له منشوراً أيضاً بتعيينه (للمرة الثانية) رئيساً على جميع الأطباء بدمشق وذلك في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م.

وقد تميز الطبيب بدر الدين بن القاضي بالصلاح والتقى وحب عمل الخير، قراء الكتب الفقهية وحفظ القرآن الكريم في آخر عمره، ولم يزل يدرّس الطب في دمشق ويتردد على البيمارستان النوري، وقلعة دمشق لعلاج المرضى حتى وفاته والف كتاب (الملح في الطب) وكتاب (مفرج النفس) استقصى فيه ذكر الأدوية والأشياء القلبية، (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧٠٢-٧٠٦؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٥٦/٧).

١٦- أبو الفرج بن القف:

هو الطبيب أبو الفرج بن موفق الدين بن إسحاق بن القف (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) طبيب من أهل الذمة، كان والده موفق الدين يعمل مع الملك الناصر يوسف بن مُحَمَّد[٦٦] كاتباً في ديوان صرخد، وكان الطبيب أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة في هذا الوقت يعمل أيضاً في صرخد، وكان بينهم صداقة فطلب والده من الطبيب أحمد بن القاسم أن يعلم ابنه صناعة الطب، فلازمه وتعلم منه أصول علم الطب وقرأ عليه في العلاج من كتب الطبيب الرازي حتى عرف ابن القف الأمراض وعلاجها، ثم انتقل ابن القف إلى دمشق وأكمل تعليمه الطبي بها، حتى أجاد مهنة الطب، وأصبح طبيباً معتمداً يعالج المرضى، ثم انتقل للعمل في قلعة عجلون، وأقام بها سنين يعالج مرضى القلعة، ثم عاد إلى دمشق وأصبح طبيباً يعالج مرضى قلعة دمشق – وهو ما سبق ذكره – واستمر على ذلك حتى وفاته بدمشق (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٧١٧،٧١٨ الزركلي، ٢٠٠٢، ١٩٦/٨).

الخاتمة:

من دراستنا لموضوع ((الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري)) نلاحظ تقدم الخدمات الطبية في بلاد الشام في هذا القرن تقدماً ملحوظاً، وكذلك انتشار التعليم الطبي انتشاراً واسعاً خاصة في مدينة دمشق، بالإضافة إلى توفر البيمارستانات (المستشفيات) التي تقدم العلاج للمرضى في معظم المدن الشامية، وكان من أهمها البيمارستان النوري في مدينة دمشق، كما شهد هذا القرن افتتاح أول مدرسة لتعليم الطب في دمشق، وهي المدرسة الدخوارية وقد كان أطباء الشام ماهرين في تخصصاتهم الطبية وأشهرها الطب العام وطب العيون (الكحالة) والطب الجراحي، كما يلاحظ اهتمام ملوك الأيوبيين بالخدمات الطبية في هذه الفترة حيث كانوا يعينون أشهر الأطباء ليكون رئيساً على الأطباء في دمشق، كما كانوا يعينون الأطباء لعلاج المرضى في البيمارستان النوري وقلعة دمشق، كما اختاروا بعض الأطباء للعمل معهم مرافقين لهم، كذلك عرفنا بعض الأمراض التي كانت شائعة في بلاد الشام وجهود الأطباء في علاجها، كما تعرفنا أيضاً على مشاهير الأطباء الذين كانوا يعملون في بلاد الشام في القرن السابع الهجري.

المراجع

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة. (١٩٩٨م). *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*. (مُحَمَّد باسل، ضبط وتصحيح). منشورات مُحَمَّد علي بيضون. دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن جبير، أبو الحسين مُحَمَّد بن أحمد. (١٩٦٤م). *رحلة ابن جبير*. دار صادر. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت.

ابن خلكان، ابوالعباس احمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم. (١٩٧١م).وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.(احسان عباس، محقق). دارصادر. بيروت.

ابن سيناء، الحسين بن عبد الله. (د.ت). *القانون في الطب*. (مُحَمَّد أمين الضناوي، وضع حواشيه). دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن كثير: أبو الفدا إسماعيل بن عمر. (٢٠٠٣م). *البداية والنهاية*. (عبد الله عبد المحسن التركي، مُحقق). دار هجر للطباعة والنشر. مصر.

ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم. (١٤١٤هـ). *لسان العرب* (ط.٣). دار صادر. بيروت.

أنيس، إبراهيم وآخرين. (١٩٧٢م). *المعجم الوسيط* (ط.٢). منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة. دار المعارف.

الحموي، ياقوت. (١٩٩٥م). *معجم البلدان* (ط.٢). دار صادر للطباعة والنشر. بيروت.

الجبوري، يحيى وهيب. (٢٠٠٦م). *مجالس العلماء والأدباء والخلفاء مرآة للحضارة العربية الإسلامية*. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

الخوارزمي، مُحَمَّد بن أحمد بن يوسف. (د.ت). *مفاتيح العلوم* (ط.٢). (إبراهيم الإبياري، مُحقق). دار الكتاب العربي.

الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان. (١٩٨٥م). *سير أعلام النبلاء* (ط.٣). (شعيب الأرناؤوط، مُحقق). مؤسسة الرسالة. بيروت.

الزركلي، خير الدين. (٢٠٠٢م). *الأعلام* (ط.١٥). دار العلم للملايين. بيروت.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك. (٢٠٠٠م). *الوافي بالوفيات*. (أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، مُحقق). دار إحياء التراث. بيروت.

عيسى، أحمد. (٢٠١١م). *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*. مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة.

غرايبة، خليف مصطفى. (٢٠١٣م، سبتمبر). جوانب من المكونات الثقافية لمنطقة عجلون. *المجلة الأردنية للمكتبات والمعلومات*. ٤٨(٣).

المنجد، صلاح الدين. (١٩٤٦م). *أبنية دمشق التاريخية (بيمارستان نور الدين)*. دمشق.

الهوامش:

*مثال ذلك بحث " الطب في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي" ، زين خلف ، ولمى فائق ، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية ، مجلد ١٠، عدد ٣٤ ، مايو/أيار ٢٠١٨م ، مركز صلاح الدين الأيوبي ، جامعة تكريت ، العراق . وبحث "ظهور المدارس الطبية المتخصصة في بلاد الشام خلال القرن ٧هـ / ١٣م " ، علي مُحَمَّد سيمو ، وعفاف سالم ، مجلة البحوث الاكاديمية ، العدد ١٧ ، ٢٠٢١م ، الاكاديمية الليبية ، مصراتة ، ليبيا .

[١] البيمارستانات: لفظة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) وتعني مريض و(استان) وتعني مكان، وبذلك تعني (مكان المرضى) وهو المستشفى. انظر: المنجد، ١٩٤٦م، ص١٣.

[٢] جالينوس: طبيب يوناني مشهور. حنين: هو حنين بن إسحاق طبيب ومترجم نصراني مشهور في العصر العباسي.

[٣] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٤] انظر التعريف بالبيمارستان النوري في هذا البحث في رابعا.

[٥] انظر ترجمة عمران بن صدقة في خامسا من هذا البحث.

[٦] المجلس هو مكان اجتماع القوم سواء أكان مجلسًا صغيرًا أم كبيرًا، يجلس فيه العالم، ويتحلق حوله أو بين يديه بقية الطلاب والحضور، وكانت المجالس تعقد في البيوت أو المضافات أو الدواوين الرسمية، يتدارس فيه الحاضرون العلم أو المناظرات، وقد تكون هذه المجالس لها تنظيم معين وأوقات محددة. انظر: الجبوري، ٢٠٠٦م، ص٣٨.

[٧] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٨] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٩] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[١٠] وانظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[١١] وانظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[١٢] وانظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[١٣] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[١٤] وانظر التعريف بالبيمارستان النوري في رابعا من هذا البحث.

[١٥] هو عبد اللطيف بن يوسف بن مُحَمَّد بن علي البغدادي موفق الدين (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، يعرف بابن اللباد، من فلاسفة الإسلام، صنف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والأدب، ولد وتوفي في بغداد، زار بلاد الشام وأقام في حلب ودمشق والقدس وزار مصر والحجاز، له مصنفات كثيرة، واختصر كتباً كثيرة. انظر (أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٠؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٦١/٤).

[١٦] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[١٧] هو الملك الأشرف موسى بن العادل مُحَمَّد بن أبي بكر مُحَمَّد بن أيوب من ملوك الدولة الأيوبية ،تولى على دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وكان حازماً شجاعاً توفي في دمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. انظر(ابن خلكان،١٩٧١، ٣٣٠/٥، الزركلي، ٢٠٠٢، ٣٢٧/٧).

[١٨] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[١٩] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[٢٠] هو الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل مُحَمَّد بن أيوب، من أمراء الدولة الأيوبية وُلي دمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، ضعف عن إدارة دمشق، وضجّ منه أهلها. قتل مخنوقاً سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م. انظر: (ابن خلكان،١٩٧١م، ٨٣/٥ ،الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٦٣/٨).

[٢١] هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن مُحَمَّد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب من كباء الملوك الأيوبيين، ولد ونشأ في القاهرة، وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً، توفي في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. انظر: (ابن خلكان ،١٩٧١م،٩٢/٥، الزركلي،٢٠٠٢، ٣٨/٢).

[٢٢] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٢٣] هو الملك العادل مُحَمَّد بن أيوب بن شادي أبو بكر أخو صلاح الدين الأيوبي عاش خلال الفترة من (٥٤٠هـ-٦١٥هـ/١١٤٥-١٢١٨م) وهو من كبار سلاطين الدولة الأيوبية استقل بملك مصر سنة ٥٩٦هـ /١٢٠٠م ثم ضم إليها الشام، وكان ملكاً عظيماً ذا حنكة وتجارب وحزم، حسن السيرة ومحب للعلماء توفي في دمشق. انظر: (ابن خلكان،١٩٧١م،٥/٧٤،الزركلي، ٢٠٠٢، ٦/٤٧).

[٢٤] وسبق الإشارة إلى ترجمته.

[٢٥] هو الملك المعظم عيسى بن مُحَمَّد العادل أبي بكر بن أيوب، سلطان الشام، كان له ما بين حمص والعريش وفلسطين والكرك، وكان فارساً شجاعاً في قتال الإفرنج وكان عالماً بفقه الحنفية ويشجع طلاب العلم وخلف آثارًا منها المدرسة المعظمة في دمشق. توفي في دمشق سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م. انظر: (ابن خلكان،١٩٧١م،٣/٤٩٤،الزركلي، ٢٠٠٢، ٥/١٠٧).

[٢٦] وسبق الإشارة إلى ترجمته.

[٢٧] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٢٨] سبق الترجمة له.

[٢٩] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٣٠] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٣١] انظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٣٢] صرخدُ: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، قلعة حصينة وولاية حسنه. انظر: الحموي، ١٩٩٥م، ٣/٤٠١.

[٣٣] الكرك: اسم قلعة حصينة بالشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيله وبحر القلزم. انظر: الحموي، ١٩٩٥، ٤/٤٥٣.

[٣٤] عجلون منطقة تقع في الأردن، وقد اهتم بها الأيوبيون في عهدهم لأغراض دفاعية، وذلك لحصانة موقعها الجبلي، لذلك تم بناء قلعتها قلعة عجلون على يد القائد الأيوبي عز الدين أسامة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م لتكون مركز حماية للمنطقة والحفاظ على خطوط المواصلات ولمنع انتشار القوات الصليبية في المنطقة، وبنيت القلعة على جبل بني عوف غربي مدينة عجلون. انظر: غرايبة، ٢٠١٣ سبتمبر، ٤٨(٣)، ص١٧٤.

[٣٥] وانظر ترجمته في خامساً من هذا البحث

[٣٦] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[٣٧] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[٣٨] هو الملك الأمجد بهرام شاه بن فخرشاه بن شاهنشاه بن أيوب، من ملوك الدولة الأيوبية، كان صاحب بعلبك، تملكها بعد والدة ثم أخرجه منها الملك الأشرف سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م فسكن دمشق ومات فيها سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. انظر (ابن خلكان،١٩٧١م،٧/١٦٧،الزركلي، ٢٠٠٢، ٢/٧٦).

[٣٩] وانظر ترجمته في خامساً من هذا البحث.

[٤٠] هو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى بن مُحَمَّد بن أيوب، ولد ونشأ في دمشق وملكها بعد أبيه سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ثم تحول إلى الكرك وتملكها سنوات، ثم زال ملكه وتشرد وحبس بقلعة حمص. توفي بظاهر دمشق سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. انظر ، (الصفدي،٢٠٠٠، ٣٠٧،٣٠٨/١٣، الزركلي، ٢٠٠٢، ٣٣٤/٢).

[٤١] وعاء من زجاج لحفظ السوائل.

[٤٢] هو الملك الكامل مُحَمَّد ابن العادل أبو بكر بن أيوب من سلاطين الأيوبيين، حكم الديار المصرية بأمر من أبيه، وكان حسن السياسة، ثم امتلك الديار الشامية، كان حازماً مهيباً. توفي في دمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م. انظر،(ابن خلكان،١٩٧١م،٧٩/٥، الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٨/٧).

[٤٣] هو الحكيم العالم نجم الدين يحيى بن شمس الدين مُحَمَّد بن عبدان، (كان حيا سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، تميز في الصناعة الطبية، أديب وشاعر ولد بحلب سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م قرأ على الطبيب الشهير مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار، ثم عمل ناظراً على الديوان بجميع الأعمال الشامية من قبل الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يتردد بين مصر والشام. (أصيبعة،١٩٩٨، ص٦١٥-٦٢٠)

[٤٤] هو إبراهيم بن شيركوه بن مُحَمَّد بن أسد الدين شيركوه الأيوبي، أمير، يلقب بالملك المنصور، كان صاحب حمص وكان شجاعاً متواضعاً. توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥ وقبل ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ودفن في حمص. انظر: ابن أبي أصيبعة، ١٩٩٨، ص ٦١٥؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ٤٣/١.

[٤٥] بصري الشام: مدينة من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران معروفة ومشهورة عند العرب منذ القدم. انظر الحموي، ١٩٩٥، ٤٤١/١.

[٤٦] هو الملك الصالح إسماعيل أبو الخيش بن مُحَمَّد بن أبي بكر العادل ابن أيوب من ملوك الأيوبيين، كان سخياً كريماً تملك دمشق في سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، ثم أسر وقتل سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م. انظر،(الصفدي،٢٠٠٠، ١٦١/١٦، الزركلي، ٢٠٠٢، ٣٢٤/١).

[٤٧] سبق الإشارة إلى ترجمته.

[٤٨] سبق التعريف بالكرك.

[٤٩] ولم يذكر المصدر اسم صاحب حمص.

[٥٠] الجذام: علة تعفن الأعضاء وتقرحها. انظر: الخوارزمي، د.ت.، ص١٨٤.

[٥١] الاستسقاء: مرض ينتفخ منه بطن المريض ويمتلئ بالسوائل: انظر: الخوارزمي، د.ت.، ص١٨٨.

[٥٢] القولنج: مرض معوي مؤلم يتعسر معه خروج ما يخرج بالطبع وهو يكون في الأمعاء الغلاظ. انظر: ابن سيناء، د.ت.، ٥٢٤/٢.

[٥٣] الفالج: هو استرخاء أحد الجانبين من الإنسان، وقد فلج فلان إذا ذهب الحس والحركة عن بعض أعضائه. انظر الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٨٦.

[٥٤] الدوسنطاريا: مرض يصيب الأمعاء ويسبب إسهالًا وقيئًا. انظر: ابن سيناء، د.ت.، ٣٠١/٣.

[٥٥] هو الطبيب مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري، تميز بالطب والعلوم الحكمية، اشتهر بحسن العلاج والمداواة، كان يعمل في خدمة صاحب بعلبك الأمجد مجد الدين بهرام شاه وحظي في أيامه بمكانة حتى جعله وزيراً له، ثم كثرت الشكاوى عليه لاستئثاره بالأموال فقبض عليه وسجن، ثم أطلق وعاد إلى دمشق ومات بها سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، انظر: ابن أبي أصيبعة، ١٩٩٨، ص٦٧١ – ٦٧٣.

[٥٦] مرض مانيا: هو اضطراب وتوثب، ونظر لا يشبه نظر الناس وهو الجنون. انظر: ابن سيناء، د.ت.، ١٠١/٢، ١٠٢.

[٥٧] حمى الدق: هي حمى تدوم ولا تقلع، ليس لها أعراض ظاهرة ينتهي الإنسان فيها إلى ذبول وضنى. انظر الخوارزمي، د.ت.، ص ١٨٩.

[٥٨] النقرس: ورم يصيب المفاصل، انظر الخوارزمي، د.ت.، ص ١٨٩.

[٥٩] هو الوزير صفي الدين بن علي بن شكر، كان وزيراً للملك العادل وكان محباً للعلم والعلماء. وتوفي في مصر سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. انظر: ابن كثير، ٢٠٠٣، ٢٠٣/١٧.

[٦٠] قدح العين: هو إخراج الماء الفاسد منها. انظر: ابن منظور، ١٤١٤هـ، ٥٥٦/٢.

[٦١] هو السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن أق سنقر. ولد في حلب سنة ٥١١هـ/١١١٧م ونشأ بها، وكان والده سلطاناً على حلب، تولى نور الدين السلطة بحلب بعد مقتل والده سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، ثم مدّ سلطانه إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وذلك لحمايتها من السقوط بيد الصليبين. وكان سلطاناً صالحاً عادلاً بنى البيمارستانات والمدارس والمساجد، وكان شجاعاً في الحرب مقاتلاً للصليبين بثبات وقوة، واستطاع أن ينتزع منهم بعض المدن والحصون. توفي في قلعة دمشق سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وقد أسس هذا البيمارستان وجعله وقفاً للمرضى الفقراء والمساكين، وإذا احتاج الأغنياء إلى علاجه لا يمنعون من ذلك. وكان السلطان نور الدين محمود قد أسر أحد ملوك الفرنجة في حربه مع الصليبيين، وقرر أن يطلقه مقابل فدية مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، بنى منها هذا البيمارستان ليخدم مرضى المسلمين. ولا تزال إلى اليوم مباني هذا البيمارستان موجودة في دمشق في زقاق متفرع من سوق الحميدية يسمى (زقاق المارستان) (ابن كثير، ٢٠٠٣، ١٦/ ١٨٠-١٨٦، ١٩٢، ٣٧٠؛ الزركلي، ٢٠٠٢، ١٧٠/٧؛ المنجد، ١٩٤٦، ص١٣، ١٤، ١٧-٢٤).

[٦٢] ظل البيمارستان النوري يقدم خدماته للمرضى في دمشق وبلاد الشام حتى سنة ١٣١٧هـ/١٩٠٠م عندما توقف عن العمل في هذا التاريخ، حيث تم إنشاء مستشفى جديد على طراز حديث في دمشق يسمى مستشفى الغرباء. انظر: المنجد، ١٩٤٦، ص ١٦.

[٦٣] هو الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي، من ملوك الدولة الأيوبية تولى مملكة حلب منذ سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م وحتى وفاته في سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ودفن في قلعتها وكان حازماً مهيباً. انظر: (ابن خلكان ،١٩٧١م،٦/٤، الزركلي، ٢٠٠٢، ١١٣/٥).

[٦٤] الرحبة: مدينة بناها مالك بن طوق التغلبي على شاطئ الفرات في خلافة المأمون، بينها وبين دمشق مسيرة ثمانية أيام وبينا وبين حلب مسيرة خمسة أيام. انظر: الحموي، ١٩٩٥، ٣٤/٣.

[٦٥] ميا فارقين: أشهر مدينة بديار بكر وهي من أبنية الروم القديمة، فتحها خالد بن الوليد زمن عمر بن الخطاب. انظر الحموي، ١٩٩٥، ٢٣٥/٥.

[٦٦] هو الملك الناصر يوسف بن مُحَمَّد العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب، آخر ملوك بني أيوب ولد في حلب وولي السلطة بها بعد والده سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م، وتوسعت سلطته إلى حمص ودمشق وغيرها، قتل على يد هولاكو سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وكان جواداً حليماً. انظر: (الصفدي ، ٢٠٠٠، ١٣٧/٢٩، الزركلي، ٢٠٠٢، ٢٤٩/٨).